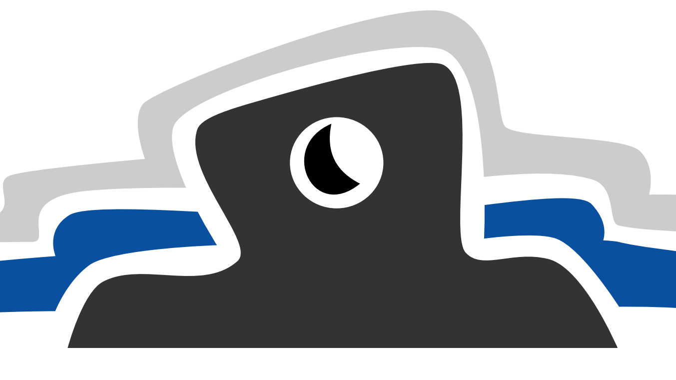
الأيات الكونية فى القرأن الكريم

تأليف

الكاتب الصحفي /

الحسيني أحمد عبدالله محمد





الكتاب: الأيات الكونية فى القرآن الكريم

المؤلف :

الحسيني أحمد عبدلله محمد

تصميم الغلاف: أحمد عبد السميع

رقم الإيداع: :
٢٠٢١/١٩٥١٦

الترقيم الدولي:
978_977_6780_72_9

الناشر



رئيس مجلس الإدارة
إكرام عيد

المدير العام
أحمد عبد السميع

الإدارة:
واتس:
(+2) ٠١٠٠٠٩٤١٤٤٩٧
alfra3ina@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن
دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

مقدمة

الحمد لله الذي نزل الكتاب مجري السحاب الذي جعل الليل سكنا والشمس والقمرا حسبانا والذي جعل الجبال اوتاد وارسال الرياح لواقح وخلق الكون فابدع وخلق الارض في اربع ايام وقدر فيها اقواتها سبحانه جل في العلا والصلاة والسلام علي خير الوري سيد بني ادم محمد بن عبدالله وعلي اله واصحابة والتابعين وتابعيهم بأحسانا الي يوم والدين أما بعد

في مطلع الحديث عن كتاب الله لابد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التي منها أنه كلام الله المعجز، الموحي به إلي خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربي مبين، والمنقول عنه(صلوات الله وسلامه عليه) نقلا متواترا بلا أدني شبهة، ، والذي نزلت آياته منجمة علي مدي ثلاث وعشرين سنة، وكتبت في حياة رسول الله(صلي الله عليه وسلم) عقب الوحي بكل مجموعة منها مباشرة ثم رتبت تلك الآيات في مائة وأربع عشرة(١١٤) سورة بتوقيف من الله(سبحانه وتعالي) الذي تعهد بحفظ آخر كتبه المنزلة فحفظه حفظا كاملا، بنفس اللغة التي نزل بها، كلمة كلمة، وحرفا حرفا، بينما تعرضت الكتب السماوية السابقة كلها إما للضياع التام، أو للتحريف والتبديل والتغيير، وقد تحدي ربنا تبارك وتعالي كلا من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مجتمعين متظاهرين فقال عز من قائل:

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(الإسراء:٨٨)

كما سخر ربنا(تبارك وتعالي) ممن ادعي من المشركين أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد افتراه، وهو النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة أو الكتابة لحكمة يعلمها الله، فقد تحدي الله تعالي العرب علي ما كانوا عليه من علم بأسرار العربية وأسباب البلاغة ـ أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو حتى بسورة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائما دون أن يستطيع بشر مجابهته علي الرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرنا علي مجئ التنزيل بقول الله تعالي: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين* فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله إلا هو فهل انتم مسلمون)[هود:١٣ و١٤]

وعلي قول الحق تبارك وتعالي: (وان كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[البقرة:٢٣]

وقد عجزت القدرات البشرية، ولا تزال عاجزة عن أن تداني كتاب الله في روعة بيانه، أو في كمال صفاته، ودقة دلالاته، وصدق أنبائه، وسمو معانيه، وعدالة تشريعه، أو في نهجه وصياغته، وتمام أحاطته بطبائع النفس البشرية، وقدرته علي التعامل معها وهدايتها، ودقة استعراضه لمسيرة البشرية من لدن أبينا آدم(عليه السلام) إلي بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين(عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي التسليم)

المؤلف

الكاتب الصحفي / الحسيني أحمد عبدالله

أهداء

كن عالما .. فإن لم تستطع فكن متعلما ، فان لم تستطع فأحب العلماء، فإن لم تستطع فلا تبغضهم"

نحمد الله عز وجل على منه وفضله علينا بإتمام هذا الكتاب

*يا من احمل اسمك بكل فخر، يا من افتقدك منذ الصغر، يا من يرتعش قلبي لذكرك، يا من أودعتني لله اهديك هذاالكتاب ......أبي

*الي حكمتي .....وعلمي.. الي ادبى ....وحلمي.. الي طريقي .... المستقيم. إلي طريق........ الهداية.. الي ينبوع الصبر و التفاؤل و الامل الي كل من في الوجود بعد الله و رسوله ....أمي الغالية أطال الله لي في عمرك

*إلى زوجتي التي لطالما كانت العون والسند

ألي وأولادي أسرتي الغالية الأمل والمستقبل

الي كل اساتذتنا الأفاضل الذين نهلنا من علومهم ومعرفتهم

الباب الأول

الفصل الأول

إعجاز الله فى الكون

مقدمة

من أعظم آيات الله فى الكون الجبال تلك الجبال التى نراها من حولنا وفى الصحراء، نمر عليها مر الكرام، بل تعجبنا ارتفاعاتها الشاهقة وأحجامها الضخمة وامتداداتها الشاسعة وكائننا ننظر إلى حجر ضخم أصم، لا يتحرك بل تؤثر فيه عوامل التجوية المختلفة من رياح وأمطار وارتفاع الحرارة بالنهار وانخفاضها بالليل وغير ذلك من عوامل التعرية. بل في الحقيقة وعلاوة على ما سبق، فإن للجبال أوتاداً تغوص فى طبقة الضعف الأرضى السينو سفيروهى طبقة أسفل القشرة الأرضية، طبقة صخرية منصهرة عالية درجة الحرارة، فتلك الجبال تستقر بأوتادها فى تلك الطبقة المنصهرة لتحمينا من حرارتها المتلهبة التى اذا خرجت الى سطح القشرة الأرضية لأهلكت الأخضر واليابس.

فليس فقط الحماية، بل كلها منافع وفوائد ومتاع لقوله تعالى "قال تعالى: (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ(٣٣) [سورة: النازعات] " فالمهمة أو الوظيفة الحقيقة التى خلقت من أجلها الجبال هى تثبيت الأرض من أن تميد أى تضطرب وتمور، قال تعالى: "(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [سورة: النحل – الأية: ١٥]" فهى تعمل على ثبات وتماسك وتوازن القشرة الأرضية من التفكك والاندثار ولذلك لكثرة الصدوع بالقشرة الأرضية، قال تعالى: " (وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) [سورة: الطارق – الأية: ١٢]" ولذا نجد القشرة الأرضية يوجد بها العديد من الجبال مثل جبال الهيمالايا وزاجروس والقوقاز والروكى والإنديز وسلاسل جبال البحر الاحمر والأطلس المغرب العربى وغيرها

وبالمقارنة بالسماء، نجد السماء لا يوجد بها أى شقوق أو صدوع لقوله تعالى: " (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ

حَسِيرٌ(٤)[سورة:الملك]" والجبال كلها فوائد من منذ نشأتها الى نهايتها فنشأة الجبال أما أن تكون عن طريق انبثاق البراكين الى سطح القشرة الأرضية أو أسفل مياه المحيطات أو عن طريق الحركات الأرضية وهى أما أن تكون حركات سريعة وتعرف بالحركات البانية للجبال أو حركات بطيئة وتعرف بالحركات البانية للقارات وهى تسبب طى للطبقات وتكوين الأحواض وهذا ما نجده فى قوله تعالى: "
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً (١٠٧) [سورة: طه]" وكلمة أمتا: أى شديدة الإستقامة.

وهكذا يتبين من الأية السابقة إنه لا يوجد سوى نوعين فقط من الجبال وهى أما أن تكون شديدة الإسقامة وهى تلك الجبال التى تتكوم من الانفجارات البركانية التى تلقى على سطح القشرة الأرضية لقوله تعالى: "(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) سورة: النحل ، الأية: ١٥]"

أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم

على مطلع الحديث عن كتاب الله لابد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التي منها أنه كلام الله المعجز، الموحي به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربي مبين، والمنقول عنه "صلوات الله وسلامه عليه" نقلا متواترا بلا أدني شبهة، بنفس النص الذي نجده على المصاحف التي خطت أو طبعت على مر العصور، ومسجلا على صدور الحفاظ جيلا بعد جيل، ومن ثم على مختلف صور الأشرطة والاسطوانات الممغنطة، والذي نزلت آياته منجمة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكتبت على حياة رسول الله" صلى الله عليه وسلم" عقب الوحي بكل مجموعة منها مباشرة ثم رتبت تلك الآيات على مائة وأربع عشرة، سورة بتوقيف من الله" سبحانه وتعالى" الذي تعهد بحفظ آخر كتبه المنزلة فحفظه حفظا كاملا، بنفس اللغة التي نزل بها، كلمة كلمة، وحرفا حرفا، بينما تعرضت الكتب السماوية السابقة كلها إما للضياع التام، أو للتحريف والتبديل والتغيير، ولذلك فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يتعبد بتلاوته، والذي لا تصلح الصلاة إلا بقراءة فاتحته وعدد من آياته، والذي لا يغني عنه من الأحاديث أو الأذكار أو الأدعية شيء، لأنه الوحي السماوي الوحيد الموجود بين الكتب الأخرى، وقد عجزت القدرات البشرية، ولا تزال عاجزة أن تداني كتاب الله على روعة بيانه، أو على كمال صفاته، ودقة دلالاته، وصدق أنبائه، وسمو معانيه، وعدالة تشريعه، أو على نهجه وصياغته، وتمام أحاطته بطبائع النفس البشرية،

وقدرته على التعامل معها وهدايتها، ودقة استعراضه لمسيرة البشرية من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين" عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي التسليم" ومن هنا كان القول" بإعجاز القرآن" وهو بين أيدي الناس اليوم محفوظا بحفظ الله كلمة كلمة وحرفا حرفا، بنفس اللغة التي أوحي بها وقد تحدي ربنا تبارك وتعالى كلا من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مجتمعين متظاهرين فقال عز من قائل: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا "الإسراء:٨٨" كما سخر ربنا" تبارك وتعالى" ممن ادعي من المشركين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد افتراه، وهو النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة أو الكتابة لحكمة يعلمها الله، فقد تحدي الله تعالى العرب على ما كانوا عليه من علم بأسرار العربية وأسباب البلاغة ـ أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو حتى بسورة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائما دون أن يستطيع بشر مجابهته على الرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرنا على مجئ التنزيل بقول الله تعالى: "أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين* فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله إلا هو فهل انتم مسلمون"هود:١٣ و١٤" وعلى قول الحق تبارك وتعالى: "وان كنتم على ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين"البقرة:٢٣"

المطلب الأول: تعدد أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم

تتعدد أوجه الإعجاز على كتاب الله بتعدد جوانب النظر عليه، فكل آية من آياته عليها اعجاز لفظي وبياني ودلالي، وكل مجموعة من الآيات، وكل سورة من السور طالت أم قصرت، بما عليها من قواعد عقدية، أو أوامر تعبدية، أو قيم أخلاقية، أو ضوابط سلوكية، أو إشارات علمية، إلى شيء من أشياء هذا الكون الفسيح وماعليه من ظواهر وكائنات، وكل تشريع، وكل قصة، وكل واقعة تاريخية، وكل وسيلة تربوية، وكل نبوءة مستقبلية، كل ذلك يعلبض بجلال الربوبية، ويتميز عن كل صياغة انسانية ويشهد للقرآن بالتفرد كما يشهد بعجز الإنسان عن أن يأتي بشيء من مثله، وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز على كتاب الله، وكان منهم من رأي ذلك على جمال بيانه، ودقة نظمه، وكمال بلاغته، أو على روعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها، وقدرتها على مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم وأزمانهم، وإشعاعها بجلال الربوبية على كل آية من آياته. ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن على كمال

تشريعه، ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله، أو على استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم" عليه السلام" إلى خاتم الأنبياء والمرسلين"عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي السلام"، مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس.ومنهم من رأي إعجاز القرآن الكريم على منهجه التربوي الفريد، وأطره النفسية السامية والعلمية على نفس الوقت، والثابتة على مر الأيام، أو على إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة، أو على إشاراته إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله عليه مما لم يكن معروفا لأحد من البشر وقت نزول القرآن ولا لمئات من السنين بعد ذلك النزول، ومنهم من رأي إعجاز القرآن على صموده على مدى يزيد على أربعة عشر قرنا لكل محاولات التحريف التي قامت بها قوي الشر المتعددة متمثلة على الكفرة والمشركين والملاحدة على مدى تلك القرون العديدة وذلك لأن الله تعالى تعهد بحفظه فحفظ قال تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" "الحجر: آية٩". ومن العلماء من يري إعجاز القرآن على ذلك كله وعلى غيره مما يقصر الحديث دونه.

المطلب الثاني: الإعجاز النظمى للقرآن الكريم

كانت الكثرة الكاثرة من القدامى والمعاصرين على حد سواء قد ركزوا اهتمامهم على ناحية نظم القرآن الكريم فهذا ابن عطية الأندلسي"ت٥٤٦ هـ" يذكر على مقدمة تفسيره"١/٢٧٨" ما نصه: إن الله قد أحاط بكل شيء علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولي، وتبين المعني بعد المعني، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لايحيط بذلك، فبهذا جاء نظم القرآن على الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: ان العرب كان على قدرتهم الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن على قدرة أحد قط، ولهذا نري البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا، ثم ينظر عليها علىغير منها، وهلم جرا، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد... وقامت الحجة على العالم بالعرب، اذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة. وهذا هو الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين أحد العلماء المعاصرين يكتب فصلا على إعجاز القرآن" كتقديم لترجمته لكتاب الظاهرة القرآنية للمفكر الإسلامي الأستاذ مالك بن نبي" يرحمه الله" يحدد عليه الإعجاز على دائرة البيان والنظم حيث يقول: ان الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القران كله، أي ذلك كان على تلاوته على سامعيه من العرب،

الدليل الذي يطالبه بان يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، هو وجه البيان والنظم. وإذا صح أن قليل القرآن وكثيرة سواء من هذا الوجه، ثبت أن ما على القرآن جملة، من حقائق الأخبار عن الأمم السابقة، ومن أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات على ما لم يعرفه البشر من أسرار الكون إلا بعد القرون المتطاولة من تنزيله، كل ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب، وهو إن يستبينوا على نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم، ومن وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين... ولكن إذا جاز هذا التحديد على موقف التحدي من مشركي العرب ـ على الرغم من عدم وجود الدليل على ذلك ـ فانه بالقطع لا يجوز على إطلاقه، خاصة أن العرب اليوم على جملتهم قد فقدوا الحس اللغوى الذي تميز به أسلافهم، وأن التحدى بالقرآن للإنس والجن متظاهرين هو تحد مستمر قائم إلى يوم الدين، مما يؤكد أن ما على القرآن من أمور الغيب، وحقائق التاريخ، ومن فهم دقيق لمكنون النفس البشرية وحسن الخطاب على هدايتها وإرشادها وتربيتها، ومن مختلف الصور التي ضربت لعجائب آيات الله على خلقه، ومن غير ذلك مما اكتشفه ولايزال يكتشفه" على كتاب الله" متخصصون على كل حقل من حقول المعرفة، لا يمكن أن يبقي بمعزل عن ذلك التحدي المفضي إلى الإعجاز القرآني، والدال على أن القرآن كلام الله.

المطلب الثالث: نشأة منهج التفسير العلمى لكتاب الله

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التي تشير إلى الكون وما به من كائنات" أحياء وجمادات"، وإلى صور من نشأتها، ومراحل تكونها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الإلهية التي تحكمها، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة، وتفهم للحكمة، وما يستوجبه من إيمان بالله، وشهادة بكمال صفاته وأفعاله، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ الخالق البارىء المصور الذي أبدع ذلك الخلق بعلم وقدرة وحكمة لا تحدها حدود، ولا يعليها حقها وصف. وقد أحصي الدارسون من هذه الإشارات الكونية على كتاب الله ما يقدر بحوالى الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخري عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، وبدوام اتساع دائرة المعرفة الإنسانية، وتكرار تأمل المتأملين على كتاب الله، وتدبر المتدبرين لآياته ـ جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر ـ لن ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة على كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الإلهي الذي يقول عليه ربنا" تبارك وتعالى": "سنريهم آياتنا على الآفاق وعلى أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف

بربك أنه على كل شيء شهيد"فصلت: آية٥٣". وبدهي أن يتباين موقف العلماء من تلك الإشارات الكونية على كتاب الله بتباين الأفراد وخلع لياتهم التفاعلية وأزمانهم، وباتساع دائرة المعرفة الإنسانية على مجال الدراسات الكونية" التي تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية" من عصر إلى عصر، وأول من بسط القول على ذلك الإمام الغزالي"ت٥٠٥هـ" على كتابيه إحياء علوم الدين وجواهر القرآن والذي رفع عليهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعا.

المطلب الرابع: صور إعجاز القرآن

و أن من صور إعجاز القرآن اشتماله على كل شيء، وأن كل شيء، وأن كل العلوم تشعبت من القرآن، حتى علم الهيئة، والنجوم، والطب إلى آخر ما ذكر. وتبع الإمام الغزالي على ذلك كثيرون، كان من أشهرهم على القديم العلامة الشيخ الفخر الرازي" ت٦٠٦ هـ"، وعلى الحديث فضيلة الشيخ طنطاوي جوهري" ت١٣٥٩ هـ"، مما أدي إلى بروز المنهج العلمي على تفسير القرآن الكريم، والذي يعتمد على تفسير الإشارات الكونية الواردة على كتاب الله على ضوء من معطيات العلوم الحديثة، مع تفاوت على ذلك من عصر إلى عصر. ويعتبر تفسير الرازي المعنون مفاتيح الغيب أول تفسير يبين المسائل العلمية والفلسفية، خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة، وغير ذلك من العلوم والفنون التي كانت معروفة على زمانه، والتي كان هو على معرفة بها.

أما تفسير الشيخ طنطاوي جوهري والمعنون الجواهر على تفسير القرآن الكريم ليعتبر أضخم تفسير ينهج النهج العلمي، إذ يقع على خمسة وعشرين جزءا كبارا، حاول عليها الشيخ" يرحمه الله" تفسير القرآن الكريم تفسيرا يتجاوب مع روح العصر، وما وصلت إليه المعارف الإنسانية على مجال دراسات الكون وما عليه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء، ومن الظواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الإلهية التي تحكمها، ليبرهن للقارئ أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون على تفصيل وبيان وإيضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوي على كل ما وصل، وما سيصل إليه البشر من معارف.هذا، وقد نعي الشيخ الجوهري" يرحمه الله" على علماء المسلمين إهمالهم للجانب العلمي على القرآن الكريم، وتركيز جهودهم على الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله:لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب على علم الفقه، وعلم الفقه ليس له على القرآن إلا آيات قلائل لاتصل إلى مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقل جدا فى علوم الكائنات التي لا تكاد تخلو منها سورة؟، ولذا فإننا نجده على مطلع تفسيره يتوجه بنداء إلى المسلمين

يقول عليه: يا أمة الإسلام، آيات معدودات على الفرائض" يقصد آيات الميراث" اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية عليها عجائب الدنيا كلها... هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الإسلام... هذا زمان رقيه، يا ليت شعري، لماذا لا نعمل على آيات العلوم الكونية ما فعله أباؤنا على علوم الميراث؟.

الفصل الثاني

المطلب الأول: نظام التعليم الإسلامي

ويكمل الشيخ علي جوهر صاحب تفسير الجواهر علي تفسير القرآن الكريم. فيقول ان علوم البلاغه ليست هي نهاية علوم القرآن بل هي علوم لفظيه، وما نكتبها اليوم" يقصد على تفسيره"، علوم معناه.... ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه عليها من إشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة، بل انه قد استعان على هذا التفسير ـ الفريد من نوعه ـ بكثير من صور النباتات والحيوانات والمظاهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية، وكذلك الأرقام العددية التي ينظمها حساب الجمل المعروف، وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي على التفسير" كما اعتبر من قبل" جنوحا إلى الاستطراد على تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية، استنادًا إلى الحقيقة المسلمة إن القرآن لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا جداول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها، وإنما هو على الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي ركائز الدين التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه عليها ضوابط صحيحة، والقرآن العظيم حين يلفت نظر الإنسان إلى مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال على قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره ومن قبيل إقامة الحجة البينة على الجاحدين من الكافرين والمشركين، ومن قبيل التأكيد على إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما عليه وعلى حاجة الخلق على كل لحظة من لحظات الوجود إلى رحمة ذلك الخالق العظيم. فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا" يرحمه الله"

يكتب على مقدمة تفسيره المنار ما نصه:..... وقد زاد الفخر الرازي صارخا آخر عن القرآن هو ما يورده على تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة على الملة على ما كانت عليه على عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين"ويقصد الشيخ طنطاوي جوهري" بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر علما يسميه تفسير الآية، فصولا طويلة ـ بمناسبة كلمة مفردة، كالسماء أو الأرض ـ من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد القارئ عما أنزل الله لأجله القرآن، وعلى الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا

المنهج العلمي قديما وحديثا، إلا أن عددا كبيرا من العلماء المسلمين ظل مؤمنا بأن الإشارات الكونية على كتاب الله أي الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون على إجمالها وتناثرها بين آيات الكتاب المجيد ـ تبقي بيانا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي حق مطلق، وصورة من صور الإعجاز على كتاب الله ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ وان ذلك قد لا يتضح إلا للراسخين على العلم من المتخصصين على مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية" كل على حقل تخصصه"، وحتى هؤلاء يظل يتسع إدراكهم لذلك الإعجاز باتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر، مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى: "إن هو إلا ذكر للعالمين* ولتعلمن نبأه بعد حين". ولقول رسول الله" صلى الله عليه وسلم" على وصفه للقرآن الكريم بأنه لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد:. ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين على مختلف مجالات المعرفة الإنسانية ـ على كل عصر وعلى كل جيل ـ أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من إلمام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربي الأول، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور على التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد أعلام السابقين من أئمة المفسرين، وغير ذلك من الشروط التي حددها علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة على شرح آيات الكتاب الحكيم ـ كل علىما يخصه ـ حتى تستبين للناس جوانب من الإعجاز على كتاب الله، لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذي نعيشه، وحتى يتحقق قول الله تعالى على محكم كتابه: "لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون"الأنعام: آية٦٧"

المطلب الثانى: مؤلفات تتناول الإعجاز العلمي

ظهرت مؤلفات عديدة تتناول قضية الإعجاز العلمي على كتاب الله فقال: "سنريهم آياتنا على الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد" فصلت: آية٥٣". والآيات الكونية فى كتاب الله" هى الآيات التي تحتوي على إشارات لبعض أشياء هذا الكون من مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والجبال والأحجار، والأنهار والبحار، والرياح والسحاب والمياه، والرعد والبرق، ومراحل الجنين على الإنسان، وبعض صور الحيوان ومنتجاته والنبات، ومحاصيله وثماره وغير ذلك" لابد لنا من الإشارة إلى أن بعض الكتاب من القدامى والمعاصرين ـ على حد سواء..

قد اعترض على استخدام لفظ معجزة ومشتقاته على الإشارة إلى عجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بشئ من مثله، أو إلى استعصاء تقليد القرآن الكريم على الجهد البشري واستعلائه عليه، لأنه كلام الله تعالى، المغاير لكلام البشر جملة وتفصيلا، ولو أنه أنزل بأسلوب يفهمه البشر وقت نزوله وعلى كل عصر من العصور التالية لنزوله إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وحجة المعترضين على لفظ معجزة ومشتقاته تقوم على أساس من أن اللفظ لم يرد له ذكر على كتاب الله بالمعني الشائع اليوم، ولا على الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة وإن وردت مشتقاته للدلالة على عدد من المعاني القريبة أو المغايرة قليلا لذلك على ستة وعشرين موضعا من القرآن الكريم بألفاظ أعجز، ومعجزين، ومعاجزين وعجوز وأعجاز وتصريفاتها ودلالاتها على تلك المواضع قد تبعد قليلا عما أريد التعبير عنه بلفظ المعجزة عند علماء اللغة، خاصة أن القرآن الكريم قد أشار دوما إلى مدلول المعجزة بلفظ آية"بصيغة المفرد والمثني والجمع" على أكثر من ٣٨٠ موضعا منها قول الحق تبارك وتعالى: "وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه" "الأنعام: أية٣٧"

وقوله "عز من قائل": "وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية"البقرة: آية١١٨" وقوله تعالى: "ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك"البقرة: أية١٤٥" وقوله: "سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة"البقرة: آية٢١١" وقوله تعالى على لسان أحد أنبياء بني إسرائيل: "وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت... إن على ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين.." " البقرة: آية٢٤٨" قوله تعالى على لسان نبيه صالح" عليه السلام" مخاطبا قومه: "... هذه ناقة الله لكم آية..." "الأعراف: الآية٧٣" وقوله على لسان فرعون وقومه وهم يعارضون سيدنا موسي" على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم": "وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين"الأعراف: أية١٣٢" وهذه حجة مردودة لأن التعبير عن إعجاز القرآن قد استخدم منذ القرون الهجرية الأولي، ولم يجد علماء المسلمين من الصحابة والتابعين غضاضة على استخدام هذا التعبير على الرغم من عدم وروده بهذا المعني على كتاب الله، آيات كونية وعددها "٨٨"ومنها "إِنَّ على خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي على الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ عليها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "١٦٤" "البقرة"

الفصل الثالث

آيات تدبير الله للأمم و الدنيا

من الموضوعات التي ركّز عليها القرآن الكريم فى قصصه، وأمر بالتدبّر عليها وأخذ العبَر والمواعظ منها، موضوع مصير الأمم السّالفة خصوصاً الأمم الهالكة منها، وذلك عبر النظر عليها وما جرى على أقوامها من أحداث ووقائع وسنن وأحوال، هذه السّنن لا شكّ على أنّها تقوم على علل ومسبّبات، والآيات القرآنية طالما أشارت إليها بحيث جعلتها خطوطاً عامّة وعلامات واضحة يستشرف من خلالها المتدبّر الواعي حال الأمم السّالفة، وكيف تعاطت مع رسل الهداية من الله تعالى وكيف صدّت نفسها عن طرق الهداية من مكونات الفطرة والعقل ونهج الأنبياء والرّسل.

المطلب الأول: قصص لكلّ الأمم والمجتمعات البشريّة

القصص البليغة ليست للإثارة والتّشويق بل قصص هداية ومنهج حياة لا تقتصر فقط على زمانها ومكانها فحسب، بل هي مطّردة تجري على كلّ زمان ومكان، بل لكلّ الأمم والمجتمعات البشريّة. قال تعالى {أَوَلَمْ يَسِيرُوا على الْأَرْضِ فينظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}"١". {وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}"٢". {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ على الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ}"٣". {لَقَدْ كَانَ على قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ}"٤". وإذا أردنا أن ننطلق لواقعنا على الحياة الاجتماعيّة، ونستشرف معالم مستقبل حياتنا المنشودة على طريق الحقّ والهداية والصّلاح، كان لزاماً علينا أن نبحث عن حركة الأمم على صعودها ورقيّها من جهة، وأيضاً عن عوامل سقوطها وهلاكها من جهة أخرى من خلال فالقرآن الكريم يبين لنا ان التاريخ حول السّنن القرآنيّة على المجتمعات البشريّة: "إنّ القرآن يبيّن أنّ التّاريخ يسير وفق نواميس وسنن. وإنّ التاريخ بفضل هذه النّواميس والقوانين الخاصّة به دائم الصّيرورة والحركة، شأنه شأن باقي ظواهر عالم الوجود التي تقوم على قوانين وسنن

خاصّة بها. والقرآن، ووفق صور وتعابير مختلفة، وانطلاقاً من العديد من الآيات، قد كشف هذه الحقائق فعلى بعض الآيات تحدّث مباشرة عن وجود هذه القوانين، ولو بنحو كليّ وعامّ، حيث تحدّث عن أنّ التاريخ تحكمه نواميس وسنن خاصّة به، كما عمل ضمن آيات أخرى على عرض مصاديق لبعض هذه القوانين والسّنن التي تحكم عجلة تاريخ البشريّة، كما وجدناه على آية أخرى يتحدّث عن بعض النظريات، التي عرضها من خلال ذكره لمصاديق وقائع وأحداث تاريخية واقعيّة ولم يقتصر على نوع واحد من أنواع التّعبير، بل كانت له القدرة على عرضها على أشكال مختلفة ومتنوّعة، بمعنى أنّ المصداق لم يكن هو الأصل على الآية أو الآيات، ولكنّ المفهوم الكليّ الّذي تكشفه هو المراد. وهذا الرأي ذكر في عدد من التفاسير على مختلف المذاهب

المطلب الثاني: مفهوم الأمّة

الأمّة لغةً: أَمَمْت إليه: إذا قَصَدْته، معني الأمَّةُ على الدّين أي أن مقصدهم مقصد واحد والأمَّةُ: الطريقة والدّين، يقال فلان لا أمّةَ له أي لا دين له ولا نحلة له. نجد هذا المعنى على قوله تعالى: "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ .(سوره الزخرف22) ايضا ذُكرت بمعنى الجماعة على قوله تعالى: "وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مدىنَ وَجَدَ عليه أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُون اي جماعة من النّاس. وقد ذكر بعض المفسرين أنّ أصل الكلمة من أمَّ، يؤمُّ إذا قصد وقد أطلق على الجماعة لكن ليس كلّ جماعة، بل جماعة كانت ذا مقصد واحد وبغية واحدة"١٠". وقد وردت مفردات قرآنية عديدة مرادفة لمفردة (الأمّة) على القرآن الكريم، مثل الجمع والقوم والشّعب والقرية وأهل القرى وغيرها. وعادةً ما يستعمل القرآن على خطابه للأنبياء والأمم المعاصرة لهم، مفردة (القوم): يقول تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ويضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ""١١". هنا الحديث عن جماعة النّبي الّذي ينتمي إليهم إمّا بأواصر القربى والنّسب. وأخرى بمعنى أواصر العلاقات الفكريّة والاجتماعيّة الّتي تربطهم بالنّبي. كما على قوله تعالى: "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ""١٢" . الأمّة اصطلاحاً: أمّا على الاستعمال القرآنيّ نجد مفهوم (الأمّة) على آيات عديدة: منها قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}"١٣". وقوله تعالى: {ولْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}"١٤". الآيتان الكريمتان وغيرهما، فُسّرت بجماعات من

النّاس متعدّدة بحسب واقعها اللّغوي والتّاريخي و، إلّا أنّها ترتبط على ما بينها بروابط فكريّة وشعوريّة وسلوكيّة، كما ولها أهدافٌ اجتماعية وحركيّة، بحيث تعبّر مجموعها عن مجتمع متكامل، وأبرز مصداق لتلك الجماعات هي جماعة الأنبياء على مرّ التّاريخ الإنسانيّ. أو يرى البعض أن "الأمّة بوصفها مجتمعاً يُنشئ ما بين أفراده العلاقات والصِّلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ المسندة

المطلب الثالث: مفهوم السّنن

مفهوم السّنن: السّنة لغةً: هى الطّريقة، وسنّة الله أى حكمته وسيرته على خليقته"١٦".
السّنن التاريخية اصطلاحاً: عبارة عن الضّوابط والقوانين والنّواميس الّتي تتحكّم على عمليّة التاريخ والمجتمع سنّة الله تعالى بمعنى جريان من ظهور صفاته على ضوابط مخصوصة، تختلف هذه الضوابط باختلاف كلّ صفة وبمقتضى خصوصيّاتها"١٨".
وقد حثّت آيات عديدة على استقراء الحوادث وحياة الماضين وقصص الأنبياء وما جرى على أقوامهم، وذلك للوقوف على الأسباب والعوامل والسّنن التي رسمت مصيرها. قال تعالى: {قَد خَلَت مِن قَبلِكُم سُنَنٌ فَسيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبين}"١٩".

المطلب الرابع: مفهوم الخلافة

الخلافة لغةً: صار مكانه أو قام مقامه"٢٠" واصطلاحاً: الخلافة أن يحاكي من استخلفه على صفاته وأعماله، فعلى خليفة الله على الأرض أن يتخلّق بأخلاق الله، ويريد ويفعل ما يريده الله ويحكم ويقضي بما يقضي به الله ـ والله يقضي بالحقّ ـ ويسلك سبيل الله ولا يتعدّاه قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ على الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ عليها مَن يُفْسِدُ عليها وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ""٢٢". وهنا الاستخلاف كما يشير جملة من المفسّرين ليس لشخص آدم" فحسب بل للجنس الآدميّ البشريّ. كما على قوله تعالى: "وهُوَ الَّذى جَعَلَكُم خَلائِفَ الأَرضِ ورَفَعَ بَعضَكُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ""٢٣".

المطلب الخامس: مفهوم الهلاك

الهلاك: لغةً: الشيء الذي يهْوي ويسقُط.

وقوله تعالى: "وجَعَلنا لِمَهلِكِهِم مَوعِدًا" "٢٥"، أى لوقت هلاكهم أجلاً، ومن قرأ لِمُهلَكِهِم فمعناه لإهلاكهم. أهميّة التفكر على أحوال ومصير الأمم السّابقة على القرآن: أكّد القرآن الكريم من خلال آياته على حقائق عديدة، والّتي ترتبط بحياة النّاس ومصيرهم وتنظّم شؤونهم وترسم طريق الصّلاح والهداية لهم، كما تمنع عنهم المزالق والأخطار التي تحدق بمصيرهم ومستقبلهم. ومن تلك الحقائق التي طالما ركّز عليها القرآن، أهميّة النّظر والتفكر في أحوال الماضين من الأمم السّالفة، والأقوام الغابرة، وأخذ العبر والدّروس والتفكر عليها، وهي وقائع بطبيعتها لا تخصّ أمّة دون غيرها. وقد تناولت آيات القرآن الكريم هذا المعنى من زوايا عدّة: التفكر على أحوال الماضين: هذه الدعوة القرآنية لم تأت لحبّ الاستطلاع، أو هي من نسج الخيال القصصيّ، بل هي حقائق ووقائع عاشتها أمم سالفة كانت لعلاقاتها آثار عملية ارتبطت بمصيرها وعاقبتها، من هنا تأتي الضّرورة للتفكر عليها. يقول تعالى: "فَاقصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرون"."٢٦" وقد تناول القرآن حياة الأمم على قالب القصّة الّتي هي أقرب للوجدان والمشاعر الإنسانية، وما عليها من تمثيل يستثير العقول ويوقظ الوعي الإنساني، نحو آثار وأحوال الأمم ليس على مآلها فقط، بل أيضاً على المسبّبات وأنماط السّلوك والممارسات الّتي لها صلة وثيقة بحياة الإنسان ومصيره، الاطلاع على سنن الأوّلين: يؤكّد القرآن الكريم دائماً على أخذ السّنن التّاريخية، والّتي جرت على الأمم السّالفة ومعرفة مصيرها سواءً على صعودها وتقدّمها أو على هلاكها وسقوطها، لذا من الضّروريّ التّعرف على تلك السّنن واكتشاف مسار تحقّقها. فعلى الوقت الذي يتعرّض لحياة الأمم السّابقة، يعرض كيف تعامل الأنبياء مع أقوامهم، وفق سنن وشروط تحكم هذه العلاقة، فهناك سنن للحق علىنا الأخذ بها، وهناك سنن للباطل علىنا اجتنابها وتركها، هذه السّنن والتي بطبيعتها تتّصف بالحتميّة، لا يمكن أن تتبدّل أو تتخلّف من أمّة لأخرى ما دامت تسير على خطاها ووفق سننها، يقول تعالى على هذا الصّدد: "يُريدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم ويَهدِيَكُم سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم ويَتوبَ عليكُم واللهُ علىمٌ حَكيم""٢٧". تثبيت الرّوح الإيمانيّة: قال تعالى: "وكُلاًّ نَقُصُّ علىكَ مِن أَنباءِ الرُّسُلِ

ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وجاءَكَ فى هٰذِهِ الحَقُّ ومَوعِظَةٌ وذِكرىٰ لِلمُؤمِنين""٢٨". كذلك لم يكن عرض حياة الأنبياء وأقوامهم مجرّداً للمعرفة والتّفكّر على القرآن، ولا أن نأخذ السّنن منها فحسب، بل كان لها دور مهمّ على تثبيت قلوب المؤمنين والرّوح الرّساليّة، على حالات المواجهة والصّراع والمحنة، حيث تستحضر المدد الإلهي على حالات النّصر والهزيمة، وتربط الأسباب بيد خالقها فهو الحاكم والمهيمن وبيده مقاليد الأمور وإليه المصير. هذا البعد يرتبط بالحالة الوجدانيّة أكثر ويحرّكها بشكل واعٍ وبصيرة ثاقبة. أخذ العبر من المصير والعاقبة: إنّ القرآن كما يدعو للتّفكّر والتعقّل لممارسات الأمم وحالات الصّراع بينهم على الأساليب وطبيعة الأجواء، يدعو إلى أن نأخذ العبر والدّروس على نتائجه ومصيره ومآله، فالسّرد القصصي كما أشرنا يهدف للأخذ من حياة الماضين من أجل أن نرسم حاضرنا أو نحدد مستقبلنا القادم. قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ على الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ}"٢٩". قال تعالى {لَقَدْ كَانَ على قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ}"٣٠". يقول الإمام على فى على إحدى خطب نهج البلاغة "واعتَبِرُوا بِما قد رأيتُم مِن مصارِعِ القُرُونِ قبلَكُم". ويريد به الأمم الماضية أو الأجيال الماضية، فالقرن على اللّغة جماعة النّاس على عصر واحد فالإمام على هذا التّعبير يوجّه الأفكار نحو التأمّل على مصائر الأمم والشّعوب، وكيف ولماذا تضعف وتتفسخ ويصيبها الانحطاط والتخلّف؟. ويتساءل الإمام على حشد عامّ عن مصير الدّول والشّعوب القديمة، على قول مخاطباً أصحابه:"... وإنّ لكم على القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أين أصحاب مدائن الرّسّ الذين قتلُوا النّبيّين، وأطفأوا سُنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبّارين؟ أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن؟ "٣١".

الفصل الرابع

إنّ البشريّة حين ترسم مصيرها بيدها كقوله تعالى: "إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ" "٣٤". حينما يتناول القرآن الكريم جزءاً كبيراً من حقائقه ومعارفه حول السّنن والقوانين المتحكّمة على حركة الأمم ومصيرها، يقوم إمّا بإعطاء الفكرة ضمن صيغة كليّة وقاعدة عامّة، أو من خلال تقديم النّموذج والمصداق على مستوى التّطبيق. والغرض الأهمّ من كلّ ذلك، هو الاستفادة الواعية المتدبّرة للحوادث والمواقف لتلك الأمم البائدة، واستقراء تاريخها من أجل اكتشاف السّنن والقوانين الحاكمة عليها، فالقرآن لا يجد معنى للاستقراء من دون افتراض ذلك. فحركة الأمم والمجتمعات وإن تحرّكت بموجب قانون العلية والسّببيّة حركة حتميّة، إلّا أنّ ذلك يعتمد بشكل كبير على اختيار الإنسان وتفعيل إرادته، فهو بيده يمسك ناصية التّاريخ ويحرّكها، بل يخضعها لاختياره وإرادته دون أنّ يخلّ أو ينتقص من قانون العلة وحتميّته. فعلى الوقت الذي يشير القرآن للإنسان بوصفه العنصر الفاعل والمؤثّر على مجرى التّاريخ، يشدّد على تحمّل مسؤوليّة اختياره وعمله، وأن يتحمّل نتائج آثار أفعاله وخياراته، ولا يستطيع أن يخرج من إطار العلية الحتميّة، بل يمكن أن يحقّق ما يريد على داخل دائرة الحتميّة، ودون أن يتخلّص من نتائج اختياره وإرادته. كما وتقسّم الأغراض القرآنيّة من وراء السّرد للقصّة إلى قسمين: الأوّل: ذا هدف موضوعيّ: من أجل إثبات صحّة النّبوّة أو إثبات وحدة الرّسالات أو شرح بعض القوانين والسّنن التّاريخيّة الّتي تتحكّم على مسيرة المجتمع الإنساني. والثّاني: ذا هدف تربويّ: من أجل تربية الإنسان على الإيمان بالغيب، أو خضوعه للحكمة الإلهيّة أو الالتزام بالأخلاق والاعتبار بسير الماضين"٣٢".

المطلب الأول: عطاءات وثمار الرّؤية القرآنيّة

التّاريخ بحسب الرّؤية القرآنيّة له عطاءات وثمار على حياة الأمم والمجتمعات، من خلال تأكيده على أمرين مهمّين: أوّلاً: إنّ للتّاريخ ضوابط كليّة وموازين عامّة فالقرآن رفض بشدّة النّظرة العبثيّة إلى التّاريخ، وأشار إلى وجود قواعد كليّة وعامّة: "فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا" "٣٣".

ثانياً: يؤكّد على أنّ لإرادة الإنسان الدور الحاسم على تعيين مسيرة حركة التّاريخ ويشير القرآن إلى هذه القاعدة التربويّة التي تحكم التّاريخ ضمن حقل قوانينه العامّة، وذلك حين يؤكّد على هذه الحقيقة المركّبة أشار إليها القرآن من خلال طائفتين من الآيات: فمن جهة قانون عامّ. قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}"٣٥"، وضمن هذا القانون العادل إرادة الإنسان {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عليهمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}"٣٦"، فلا يمكن التوهم بالتّناقض وأنّ السّنن تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي، أو تعطّل إرادته واختياره، بل على العكس تؤكّد على المسؤوليّة الخطيرة من وراء اختياره. لذا نجد دائماً يتحدّث القرآن الكريم عن نموذجين من الأمم والمجتمعات، بينها تدافع وصراع مستمرّ على كلّ أدوار الحياة:

النّموذج الأوّل:

هم الأنبياء والرّسل وأتباعهم المستضعفون القلّة المخلصة أهل الحقّ الذين كانوا يمثّلون النّموذج الصّالح الإنساني الدّاعي إلى الله تعالى والفضيلة والصّلاح على سبيل رقيّ الإنسانيّة وسموّها.

النّموذج الثّاني:

هم المترفون وكبار القوم، ممن أخذوا موقع التّوجيه والسّلطة على مجتمعاتهم، واستضعفوا أقوامهم بما استأثروا من نعم وثروات، بحيث كانوا يمثّلون (النّموذج السيّء والمنحطّ) الغرق على الضّلال والانحراف، والدّاعي إلى الفساد والدّمار والهاوي بالمسيرة الإنسانية للسّقوط والهلاك. سنن هلاك الأمم والمجتمعات: لم يكتف القرآن الكريم بعرض مجمل عن كلا النّموذجين، بل ذهب للأسباب والسّنن والعوامل التي أدّت إلى سموّ ورقي الأمم أو هلاكها وانحطاطها.

المطلب الثانى: سنن هلاك الأمم وسقوطها

سنن هلاك الأمم وسقوطها: ـ الكفر والشّرك القاعدة العقائديّة التي يتأسّس عليها المجتمع والأمّة، لها الأثر البالغ على تشكّل هويّة الأمّة وسلوكها، ولها أيضاً أن تحقّق صعود وسموّ الأمّة أو انحطاطها وهلاكها، وكانت القضيّة الكبرى على رسالات الأنبياء هى التّوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، على قبال ذلك كانت حالة الكفر

والوثنيّة وعبادة الأصنام، تسود بين الأمم آنذاك. قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}"٣٧". وقال: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه}"٣٨"، وقال: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه}"٣٩". الكفر بالله هو العامل الرئيسيّ على انهيار الأمم وهلاكها، ويعتبر القاعدة الفاسدة التي تنبت كلّ المفاسد وعوامل التّخريب والتّمزّق، وما ينتج من علاقات منحرفة وظالمة. باعتبار أنّ الكفر والشّرك يعني اتّخاذ مُثُل علياً محدودة ومنخفضة، تعمل على تجميد حركة المجتمع وإعاقة نموه وصعوده وبالتّالي يكون سبباً على تفتّته وانهياره. قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}"٤٠"، حالة الكفر والشّرك على عبادة الأصنام والآلهة، وأيضًا على حجب الحقيقة عن عقولهم، عبر الإنكار. ـ الظلم والاستكبار تناول القرآن الكريم حالة الظّلم والاستكبار بشكل واسع، وكيف أثرهما على تمزيق المجتمع وهلاكه، أشار القرآن الكريم إلى نماذج للأمم الظّالمة والمستكبرة. قال تعالى: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مدينَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}"٤١". الظلم بما يمثّل من تجاوز طريق الحقّ يقود إلى حالة الاستكبار والطّغيان، سواءً على العلاقة مع الربّ المنعم عبر الشّرك والكفر وارتكاب المعاصي، أو تجاوز حقّ الآخرين من قبل فردٍ تجاه جماعة أو جماعة تجاه جماعة أخرى، وهناك آيات عديدة تشير إلى الظّلم كسبب رئيسيّ على هلاك الأمم والمجتمعات. قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}"٤٢"، و{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}"٤٣". ٣ـ تكذيب الرّسل ومعاداتهم يشير القرآن الكريم إلى أنّ من سنن هلاك الأمم، هو تكذيبهم لدعوة النّبي المرسَل إليهم، والاستهزاء به وبأتباعه والإيذاء النّفسيّ والجسديّ لهم. قال تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}"٤٤"، حيث كانوا يواجهون الأنبياء× وأتباعهم بحالة العناد والتعصّب والجدل والاستهزاء والرمي بالسّحر والجنون. كما على قوم نوح وقوم عاد حالة الاستعلاء. قال تعالى: {فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ علينَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}"٤٥"، و{قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}"٤٦"، و{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا

وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}"٤٧"، بل يدفعهم الحقد والتمرّد إلى أن يغلقوا على أنفسهم منبع الخير والبركة، وذلك تعدٍّ واضح للقيم الخيِّرة على الأمّة، وانحدار وتسافل نحو هلاك الأمّة وتلاشيها. {وَمَا أَرْسَلْنَا على قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}"٤٨"، الصّراع القائم دائماً كان بين النّبوّة وأتباعهم، وموقع المترعلن والمسرعلن على الأمم والمجتمعات، هو سنّة قرآنيّة طوال التّاريخ.

المطلب الثالث: العلاقات التى يقوم عليها المجتمع

يقوم المجتمع على العلاقات السّائدة بين النّاس، وهذه العلاقات إمّا أن تقوم على الطّاعة والفضيلة وبذل الخير وإقامة العدل والخلافة المرسومة لحياة الإنسان من قبل الله تعالى، أو تقوم على أساس حبّ الذّات والأهواء وتزيين الشّيطان، على تصوّر أنّه باتّباع رغباته وشهواته يحقّق ما يصبو لذاته، علىقوم بالاستغلال السّياسيّ كفرعون {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}"٤٩" أو الانحراف الأخلاقيّ كما على قوم لوط: قال تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}"٥٠". أو عبر الخيانة الاقتصاديّة كما على قوم شعيب {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا على الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}"٥١".

المطلب الرابع: تعدّد ألوان الانحرافات فى المجتمعات

تتعدّد ألوان الانحرافات من مجتمع لآخر، وعلى الأخير يقرّر القرآن هذه الحقيقة بأنّ الذّنوب والمعاصيّ طريق للسّقوط والانحدار والهلاك. قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ على الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عليهم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ}"٥٢"ـ التّرف وكفران النّعمة على ظلّ الشّعور بالنّعم الإلهيّة والوفرة على الرّزق، تصبح المادّة والنّعمة لدى بعض الأمم قيمة علىاً على أساسها يتفاضل المجتمع علىما بينه، ويشعر من يمسك بها ويستحوذ عليها بالاستغناء الذّاتيّ، وحالة الزّهو والاستعلاء على الآخرين ممن لا يمسكون بها، وبدلاً من الاستفادة من النّعم ووفرتها واستثمارها على صالح المجتمع، تتحوّل بيد المترعلن وكبار القوم إلى حالة من

الجشع والبطر، وتسود حالة الإسراف وسوء التّدبير مما يخلق ضياعاً للنّعم وبطر المعيشة واستضعاف حقوق الغير. قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}"٥٣". يذكر القرآن نموذج قوم عاد، حيث كانوا ذا بسطة على الخلق وأجسادهم طويلة، وأولي قوّة وبطش شديد، وكانت بلادهم عامرة بالخيرات والنّعم الوافرة عليها نخل وزرع، ولكن كفروا بأنعم الله وأغرقتهم الوثنيّة وحالة التّرف عن طريق الهدى وعبادة الله تعالى. نزول الهلاك بعد إتمام الحجّة: بعد إتمام الحجّة الإلهيّة على البشر،

المطلب الرابع: بعثة الرّسل والأنبياء سبب للهداية

بعث الله الرّسل والأنبياء فكان لهم الأثر على شمول الرّحمة على الأمم وكانوا سبب هداية وصعود لها، وبعد فرص الإمهال الإلهيّ وإعطاء فرص التّوبة، وصدود بعض الأمم عن دعوة الأنبياء بسبب أعمالهم وانتشار الفساد على الأمّة، يأتي نزول الهلاك والعقاب وكثيراً ما أكّد القرآن على ذلك على قوله تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}"٥٤"، و{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ على أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عليهمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}"٥٥".

المطلب الخامس: صور الهلاك والعقوبة فى الدنيا:

هناك عقوبات معنويّة ذكرها القرآن مثل الختم على قلوب العصاة وإحباط أعمالهم، ويلبسهم لباس الذلّة والمسكنة ويبث الرّعب على قلوبهم. قال تعالى: {وَضُرِبَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}"٥٦"، إضافة إلى ذلك (عقوبات حسّية) كالصّاعقة والغرق والرّجفة والرّيح الشّديدة والطّوفان كما قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عليهمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ}"٥٧". بنو إسرائيل نموذج للأمّة الهالكة"٥٨"

وذكر صاحب مجمع البيان: "إنّ إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وإنّ (إسر) تعني: العبد، و(ئيل) بمعنى: الله، فيكون معنى إسرائيل عبد الله". عبادة العجل: بعد نجاة بني إسرائيل من قبضة الفراعنة أمر موسى بالذّهاب إلى جبل الطّور مدّة ثلاثين ليلة لتسلّم ألواح التّوراة، ثم مُدّت هذه اللّيالي إلى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه، واستغل السامريّ الدجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بني إسرائيل من ذهب

الفراعنة ومجوهراتهم، وصنع منها عجلاً له صوت خاصّ، ودعا بني إسرائيل لعبادته. فاتّبعه أكثر بني إسرائيل، وبقي هارون ـ أخو موسى وخليفته ـ مع قلّة من القوم على دين التّوحيد، وحاول هؤلاء الموحّدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم يفلحوا، وأوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون أيضاً. عصيان النّبي: بعد أن عاد موسى من جبل الطّور تألّم كثيراً لما رآه من قومه، ووبّخهم بشدّة فرجع بنو إسرائيل إلى رشدهم، وأدركوا خطأهم وطلبوا التّوبة، فجاءهم أمر السّماء بتوبة ليس لها نظير، يقول سبحانه: {ثُمَّ عَفَونَا عَنْكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ}"٥٩". أُمر بنو إسرائيل لأن يتجهوا إلى أرض فلسطين المقدّسة، لكن عصوا هذا الأمر، وأصرّوا على عدم الذّهاب ما دام عليها قوم جبّارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظّالمين لموسى وحده قائلين له: {فَاذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إنَّا ههُنَا قَاعِدُونَ}"٦٠"، فتألّم موسى لهذا الموقف ودعا ربّه {قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}"٦١" فكتب عليهم التّيه أربعين عاماً على صحراء سيناء. لم يتخلَّ بنو إسرائيل عن حالتهم النّفسيّة والثّقافية الموروثة عن عصر الطّاغوت، بعد عصر من الذلّ والاستضعاف والاستعباد، ولا بدّ من فترة برزخيّة تمرّ بها كي تكون قادرة على إقامة حكم الله على الأرض، وفق معايير إلهيّة بعيدة عن مؤثّرات عصر الطّاغوت. وسواء امتدّت هذه الفترة البرزخيّة أربعين عاماً كما حدث لبني إسرائيل، أو أقلّ أو أكثر، فهي فترة عقاب إلهي هدفها التزكية والإصلاح والبناء. ولا بدّ من أن يبقى بنو إسرائيل مدّة أربعين عاماً من التّيه على الصّحراء ليتربّى جيلاًجديداً حاملاً لصفات توحيد ومؤهّل لإقامة الحكم الإلهي على الأرض المقدّسة.

مصير بني إسرائيل كما بينت لآية الكريمة أنّ بني إسرائيل {ضُرِبَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ}"٦٢" لعاملين:

الأوّل: لكفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خطّ التّوحيد.

الثّاني: لقتلهم الأنبياء بغير حقّ. ظاهرة الانحراف عن خطّ التّوحيد وظاهرة القسوة والفظاظة، لا زالتا مشهودتين حتّى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، ولا زالتا سبباً لشقاوتهم وطيشهم وتعاستهم. الذلّة هي الصّفة الملازمة لليهود والصَّغار الملتصق بهم أينما حلّوا ونزلوا، ليس حكماً تشريعيّاً كما قال بعض المفسّرين، بل هو قضاء تكوينيّ، وهو حكم التّاريخ الصّارم الذي يقضي بأن يلازم الذلّة، ويصاب بالصَّغار كلّ قوم يتمادون على الطّغيان، ويغرقون على الآثام، ويتجاوزون على حقوق الآخرين

وحدودهم، ويسعون على إبادة القادة المصلحين والهداة المنقذين، إلاّ أن يعيد هؤلاء القوم النظر على سلوكهم، ويغيّروا منهجهم وطريقتهم، ويرجعوا ويعودوا إلى الله. عن رسول الله يصف جماعة من أمّته: "أما والله لتركبنّ طبقاً عن طبق على سنّة بني إسرائيل، حذو النّعل بالنّعل والقذّة بالقذّة""٦٣".

المطلب السادس: سنن رقى الأمم وسُموّها

سنن رقيّ الأمم وسُموّها: من تلك الأسباب والسّنن الّتي تسمو بالأمم ورقيّها: ـ سنّة التّغيير يقول تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}"٦٤"

المكوّن الإنسانيّ يحتوي على عنصرين أساسيّين:

أحدهما: المحتوى الداخليّ النفسيّ الروحيّ للإنسان وهو القاعدة. والآخر: هو الوضع الاجتماعيّ وهو البناء العِلويّ. لا يتغيّر هذا البناء العِلويّ إلّا وفقاً لتغيّر القاعدة. هذه الآية إذاً تتحدّث عن علاقةٍ معيّنة بين القاعدة والبناء العِلويّ، بين الوضع النّفسيّ والرّوحيّ والفكريّ للإنسان والأمّة وبين الوضع الاجتماعيّ، بين داخل الإنسان وبين خارج الإنسان، فخارج الإنسان، يصنعه داخل الإنسان فكره وإرادته، فإذا تغيّر ما بنفس القوم انعكس ذلك على تغيّر أوضاعهم، وعلاقاتهم، والروابط التي تربط بعضهم ببعض. إذاً فهذه سنّة من سنن التّاريخ تدفع بالفرد والأمّة نحو تغيير واقعها المتخلّف إلى حالة السموّ والصّعود، حيث ربطت القاعدة بالبناء العِلويّ {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}"٦٥". ومن الواضح أنّ المقصود بالتّغيير (القوم) ونفسيّة الأمّة بشكل عامّ، وإلّا تغيُّر الفرد أو الفردين أو الأفراد الثّلاثة لا يشكّل الأساس لتغيّر الواقع النّفسي والاجتماعي بصورة عامّة، ولا قاعدة للتّغييرات على البناء العِلويّ للحركة التّاريخية كلّها، لذا نجد دعوة الأنبياء دعوة لصناعة الإنسان والحياة، ارتبطت بفكر الإنسان، من خلال إعطائه الرّؤية الصّحيحة للحياة الّتي تنفتح على آفاق الغيب، وأيضاً ارتبطت بمشاعره خالقةً بذلك روح الحيويّة والأمل، وأيضاً تصنع سلوكه على الأخلاقيّة.

سنّة الامتحان والابتلاء: قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}"٦٦". يستنكر القرآن على الّذين يأملون النّصر وأن تتحقّق العزّة والرّفعة لواقعهم، أن يكون لهم استثناء من سنّة التّاريخ، وأن يدخلوا

الجنّة وأن يحقّقوا النّصر، ولم يعيشوا ما عاشته تلك الأمم، الّتي انتصرت ودخلت الجنّة، من ظروف البأساء والضّراء التي تصل إلى حدّ الزّلزال، على الحقيقة هي مدرسةٌ للأمّة، وامتحان لإرادة الأمّة، لصمودها، لثباتها، لكي تستطيع وبالتّدريج أن تكتسب القدرة على أن تكون أمّةً وسطاً بين النّاس، فنصر الله ليس أمراً عفويّاً، وليس أمراً على سبيل الصّدفة. نصرُ الله قريبٌ ولكن قريب من الذي اهتدى إلى طريقه طريق الامتحان والابتلاء والفتنة.

سنّة الإيمان والتّقوى: قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عليهمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}"٦٧"، تشير الآية الكريمة إلى وجود ارتباط وثيق بين التّغييرات الكونيّة والأوضاع الاجتماعيّة وبين الإيمان والتّقوى، والّتي هي من الأمور النّفسيّة الموجودة داخل الإنسان، ولأنّ شريعة السّماء نزلت من أجل أن تسود علاقات النّاس على أساس من التّقوى والعدل. ظنّوا كذباً أنّ أهواءهم وسوء العلاقات والرّوابط القائمة بينهم والّتي تقوم على الكفر والظّلم، هي الّتي تحقق لهم الخيرات والمكاسب، ولكن الحقيقة أنّ السنّة التّاريخيّة تؤكّد عكس ذلك، تؤكّد بأنّ تطبيق شريعة السّماء، وتجسيد أحكامها على علاقات الإيمان والتّقوى، تؤدّي دائماً وباستمرار إلى وفرة الخيرات ونزول بركات السّماء وهذه سنّة من سنن التّاريخ، آيات تدبير الله للأمم و الدنيا ومنها "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا عليه وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ على الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ".

الباب الثانى

الفصل الأول

مظاهر عناية الله بالإنسان

من مظاهر عناية الله بالإنسان تسمية سورةٍ كاملةٍ فى القرآن باسم سورة "الإنسان"، التي تتميّز بالنداء الموجّه له بالحرص على تذكّر الأصل الذي خُلِق منه، وفَضْل الله ومِنّته عليه؛ إذ خلق الله الإنسان بشرًا سويّا، ومهّد له طريق الخير والشّر ليختار منهما بإرادته وكَسْبه، وبقرارة عَقْله، وبما يملك من طاقاتٍ ومدارك، ليتميّز بذلك عن غيره من المخلوقات، فقد تحدّثت الآيات القرآنيّة عن الإنسان؛ إذ لم تترك جانباً من جوانبه، ولا حالةً من حالاته إلّا وذُكرت، إذ بدأ الله -سُبحانه- بأوّل مرحلةٍ من خَلْقه، ثمّ تكوينه، ثمّ مراحل خَلْقه إلى أن أصبح جنيناً، ثمّ بُيّنت مظاهر عناية الله -تعالى- به، بدءاً من مرحلة الطفولة، ثمّ رضاعه، ثمّ فِطامه، وما يحمل من مشاعرٍ وعواطف، ثمّ بيان هدايته، وحالته الفطريّة، وما يتطلّع إليه على المستقبل، كما بيّن الله على الآيات القرآنيّة حال الإنسان عند الموت، والبرزخ، والبعث، إلى حين استقراره على مقامه الأخير،

المطلب الأول: الآيات القرآنيّة والحديث عن الإنسان

ذكر الله عز وجل العديد من الصفات التي تميّز بها الإنسان، وتجعله منفردًا بها عن غيره، والغاية من ذلك تكمُن على حِفْظها، وتوثيقها، وللدعوة لتقييم تلك الصفات، وللفت الانتباه للمحافظة على الصفات الجيّدة منها، بالحرص على امتثالها، ومعالجة ما كان سيئا منها، ليتمكّن الإنسان بذلك من أداء رسالته، وإقامة مهمته بخلافته على الأرض، فقد تحدّثت الآيات القرآنيّة عن الإنسان؛ إذ لم تترك جانباً من جوانبه، ولا حالةً من حالاته إلّا وذُكرت، إذ بدأ الله -سُبحانه- بأوّل مرحلةٍ من خَلْقه، ثمّ تكوينه، ثمّ مراحل خَلْقه إلى أن أصبح جنيناً، ثمّ بُيّنت مظاهر عناية الله تعالى- به، بدءاً من مرحلة الطفولة، ثمّ رضاعه، ثمّ فِطامه، وما يحمل من مشاعرٍ وعواطف، ثمّ بيان هدايته،

وحالته الفطريّة، وما يتطلّع إليه على المستقبل، كما بيّن الله فى الآيات القرآنيّة حال الإنسان عند الموت، والبرزخ، والبعث، إلى حين استقراره على مقامه الأخير.

المطلب الثانى: ما هى مظاهر عناية الله بالإنسان

من مظاهر عناية الله بالإنسان تسمية سورةٍ كاملةٍ على القرآن باسم سورة الإنسان، التي تتميّز بالنداء الموجّه له بالحرص على تذكّر الأصل الذي خُلِق منه، وفَضْل الله ومِنّته عليه؛ إذ خلق الله الإنسان بشراً سويّاً، ومهّد له طريق الخير والشّر ليختار منهما بإرادته وكَسْبه، وبقرارة عَقْله، وبما يملك من طاقاتٍ ومدارك، ليتميّز بذلك عن غيره من المخلوقات.

المطلب الثالث: صفات الإنسان فى القرآن الكريم

الصفات الإيجابيّة للإنسان فى القرآن الكريم بيّنها الله سُبحانه وتعالى، عددا من الصفات التي تميّز الإنسان، ويجدر به امتثالها، والتحلّي بها، على ما يأتي بيان عددٍ منها: العلم: إذ قال الله -عزّ وجلّ-: (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)،"٤" فقد علّم الله -سُبحانه- عباده ما لم يعلموه، وأخرجهم من الظُّلمات والجَهْل إلى النُّور والهداية، وقد نبّه الله تعالى، على فَضْل علم الكتابة؛ لما عليه من منافع كبيرةٍ، من تدوين العلوم، وتقييد الحُكم، وضبط سِيَر الأوّلين."٥".

الخلافة على الأرض:

من أكبر دلائل تكريم الله -تعالى- للإنسان أن جعله خليفةً على الأرض، فكان استخلافه استخلافاً عامّاً، يشمل الأرض كلّها، بما عليها من مخلوقاتٍ وجماداتٍ، وما على باطن الأرض أيضاً، قال -تعالى-: (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فى الْأَرْضِ فَلنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)،"٦" وقال أيضاً: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فى الْأَرْضِ خَلِيفَةً)،"٧" إذ سخّر الله تعالى جميع ما على الأرض والسماوات للإنسان؛ كالشّمس، والنُّجوم،

والقمر، والحيوانات، والنباتات، والجمادات، فجعل الله سُبحانه- دورة الحياة على الكون متكاملةً بين جميع عناصرها، فقد رتّبها الله، ونظمها على نمطٍ ونَسَقٍ يساعد على تسخيرها للإنسان."٨"

المعرفة:

وهى من أهمّ صفات وخصائص الإنسان، فهو خليفة الله على الكون، ولا بدّ على الخلافة من إقامة معاني الابتكار، والتعمير، والتغيير، والتبديل، والإنشاء."٩" التفكّر: كرّم الله عباده، وأمرهم بالتفكّر، إذ أنعم عليهم بالسَّمع، والبصر، وغيرهما، و بيّن لهم طريق الخير والضلال، والأوامر والنّواهي التي سيُحاسب كلّ عبدٍ عليها، ليبذل المسلم الجُهد على عمله، ويسعى لنَيل خير الجزاء من الله، الذي كرّمه بالعديد من النِّعم، وميّزه عن غيره من المخلوقات، وأمره بالتفكّر على وحدانيّة ربّه."١٠" الجوارح: أنعم الله -سُبحانه- على عباده بالجوارح، وسخّرها لهم، إذ قال -تعالى-: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ""١١" وقال أيضاً: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)،"١٢" ويُقصد بامتِنان الله -تعالى- على خَلْقه بالسَّمع، والبصر، والعقل؛ بأنّها نعمةٌ من الله -تعالى- على

خَلْقه، وأنّ تعطيلها يعدّ تعطيلاً لِخَلْق الله -تعالى-، وتغييراً على خَلْقه -عزّ وجلّ-.

المطلب الرابع: صفات خصّ الله الإنسان بها

هناك صفاتٌ خصّ الله تعالى بها الإنسان بالقراءة والعلم، وبالبيان، إذ قال: (خَلَقَ الْإِنسَانَ*عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) "١٤" وخصّه كذلك بالكَسْب والتكليف، فقال: (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)،"١٥" وبيّن الله أنّ الإنسان يحتمل الوصية، فقال: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ على عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)،"١٦" كما أنّ الإنسان يحتمل هموم المكابدة، ومشاقّ الحياة، فقال: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ على كَبَدٍ)،"١٧" وقد حُمّل الإنسان أمانة استخلاف الأرض وحده، قال -تعالى-: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)،"١٨" كما أنّ الإنسان يتعرّض على حياته للابتلاء ومحنة الغواية والوسوسة، قال -تعالى-: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)."١٩""٢٠"

المطلب الخامس:

صفات ميز الله بها الإنسان عن غيره من المخلوقات

ذكر الله عزّ وجلّ العديد من الصفات التي تميّز الإنسان، وتجعله منفرداً بها عن غيره، والغاية من ذلك تكمُن على حِفْظها، وتوثيقها، وللدعوة لتقييم تلك الصفات، وللفت الانتباه للمحافظة على الصفات الجيّدة منها، بالحرص على امتثالها، ومعالجة ما كان سيئاً منها، ليتمكّن الإنسان بذلك من أداء رسالته، وإقامة مهمته بخلافته على الأرض، امتثالها، والتحلّي بها، فيما يأتي بيان عددٍ منها: العلم: إذ قال الله عزّ وجلّ: "عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"،"٤" فقد علّم الله سُبحانه عباده ما لم يعلموه، وأخرجهم من الظُّلمات والجَهْل إلى النُّور والهداية، وقد نبّه الله تعالى على فَضْل علم الكتابة؛ لما عليه من منافع كبيرةٍ، من تدوين العلوم، وتقييد الحُكم، وضبط سِيَر الأوّلين."٥"
الخلافة على الأرض: فمن أكبر دلائل تكريم الله تعالى للإنسان أن جعله خليفةً على الأرض، فكان استخلافه استخلافاً عامّاً، يشمل الأرض كلّها، بما عليها من مخلوقاتٍ

وجمادات، وما على باطن الأرض أيضاً، قال -تعالى-: (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ على الْأَرْضِ فلينْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)،"٦" وقال أيضاً: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فى الْأَرْضِ خَلِيفَةً)،"٧" إذ سخّر الله تعالى جميع ما على الأرض والسماوات للإنسان؛ كالشّمس، والنُّجوم، والقمر، والحيوانات، والنباتات، والجمادات، فجعل الله -سُبحانه- دورة الحياة على الكون متكاملةً بين جميع عناصرها، فقد رتّبها الله، ونظمها على نمطٍ ونَسَقٍ يساعد على تسخيرها للإنسان."٨"

الباب الثانى

الفصل الثانى

المطلب الأول: الصفات السلبية للإنسان

وصف الله تعالى الإنسان فى القرآن الكريم بعدّة صفات سلبيّةٍ، يجدر بالمسلم تجنّبها، وعدم امتثالها، يُذكر منها: **التسرّع:** فقد خُلق الإنسان متسرّعاً، كما ورد على قَوْل الله -تعالى-: (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)."٢١" أيّ أنّ الله -سُبحانه- خلق الإنسان سريع التأثّر والانفعال، شديد **الحزن والخوف:** إن مسّه مكروهاً، كثير المنع إن نزلت به نعمةٌ، ويُراد بالهَلع الوارد على الآية السابقة أنّ الإنسان شديد الحزن والخوف إن تعرّض للشرّ أو الضرُر، كما أنّه ييأس من نَيْل الخير بعد الشرّ، وعلى المقابل فإنّه يبخل على غيره إن نال نعمةً أو خيراً، فخُلِق الإنسان مُتسرّعاً على سبيل نَيْل ما يستلذّه، ولا يتمسّك بما يشتهيه، وإن لم يكن خيراً، ويصيبه الخوف والقلق بالشرّ، ويَبْخل على غيره بالخير الذي أنعم الله به عليه،"٢٣" وقد استثنى الله –تعالى، من أدّى فروضه، والتزم بأوامر الله -سُبحانه-، فقال: "إِلَّا الْمُصلينَ*الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ"."٢٤""٢٥"

القنوط واليَأس: قال -تعالى-: (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)،"٢٦" فالإنسان يفرح بما أصابه من النِّعم، واليُسْر، والرّخاء، وإن أصابته شدّةٌ، أو مصيبةٌ، وكثُرت عليه الجائحات؛ أصابه القنوط من رحمة الله -تعالى-، واليأس من التخلّص ممّا هو عليه."٢٧"

الضّعف: فقد قال تعالى: "وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً"،"٢٨" وقال أيضاً -عزّ وجلّ-:"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعلِيمُ الْقَدِيرُ". **البُخْل والجُحُود:** فمن الصفات الذميمة الجُحود وعدم الاعتراف بالفَضْل والنِّعم، والشُّح والبُخْل، والجدير بالإنسان أنّ يتذكّر دائماً أنّ الحياة الدُّنيا موضع ابتلاءٍ واختبارٍ، فإن أحسن العمل؛ نجا وفاز، وإن أساء؛ خَسِرَ وضلّ، فالله تعالى مُطّلعٌ على كلّ أعمال العباد، خبيرٌ بها، يحصيها بدقّةٍ؛ لتكون حُجّةً وإثباتاً،"٣١" كما قال -عزّ وجلّ-: (وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ على البَحرِ ضَلَّ مَن

تَدعونَ إِلّا إيّاهُ فَلَمّا نَجّاكُم إِلَى البَرِّ أَعرَضتُم وَكانَ الإِنسانُ كَفورًا)،"٣٢" وقال الألوسيّ على تفسير الآية السابقة: "وقوله: وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً كالتعلىل للإعراض، ويعلم منه حكم أولئك المخاطبين، وعليه لطافة حيث أعرض- سُبحانه- عن خطابهم بخصوصهم، وذكر أنّ جنس الإنسان مجبولٌ على الكفران، فلمّا أعرضوا أعرض الله- تعالى- عنهم"،"٣٣" وقال -تعالى-: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"،"٣٤"

الجحود بصييغة المبالغة؛ لأنّه كثير الوقوع من الإنسان بخلاف الشُّكر."٣٥" القَتَر: ويُراد به قلّة النفقة، وقد ذمّه الله على قَوْله: (وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا)."

الجِدال: قال تعالى: (وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)،"٣٨" ويُقصد بذلك أنّ الإنسان كثير الخصومة والنزاع على الرأي، ويراد بالجدال؛ محاولة كلّ طرفٍ إثبات صدق وصحّة كلامه وحديثه، وقد يكون ذلك بالباطل؛ لإثبات ما يوافق الهوى والرغبة، وقد يكون بالحقّ؛ بهدف الوصول للحقيقة، دون الانحياز للأهواء والرّغبات."٣٩" الحسد: وقد ورد ذِكْره على العديد من المواضع على القرآن الكريم، منها: قَوْله -تعالى-: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)،"٤٠" وقَوْله: (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)."٤١""٤٢"

المَنْع: قال -تعالى-: (وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً)،"٤٣" أي المنع وعدم العطاء ممّا مَنّ به الله على عباده من الخير والغِنى والمال، وعدم أداء حقّ الله على ذلك."٤٤" العجلة على إجابة الدّعاء: فقد قال -تعالى-: (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)،"٤٥" وقال مُجاهد على تفسير الآية السابقة: "ذَلِكَ دُعَاءُ الْإِنْسَانِ بِالشَّرِّ عَلَى وَلَدِهِ وَعَلَى امْرَأَتِهِ، على عَجِّلْ: على دْعُو عليه، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُصِيبَهُ".
وقال الإمام الطبريّ رحمه الله: "يَدْعُو الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ بِالشَّرِّ، على قُولُ: اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُ وَالْعَنْهُ عِنْدَ ضَجَرِهِ وَغَضَبِهِ، كُدُعَائِهِ بِالْخَيْرِ:
يقُولُ: كُدُعَائِهِ رَبَّهُ بِأَنْ يَهَبَ لَهُ الصحة والعافية، وَيَرْزُقَهُ السَّلَامَةَ على نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، يقُولُ: فَلَوِ اسْتُجِيبَ لَهُ على دُعَائِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ بِالشَّرِّ كَمَا يُسْتَجَابُ لَهُ على الْخَيْرِ هَلَكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بِفَضْلِهِ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ على ذَلِكَ."٤٦" عدم الرِّضا: فقد قال -تعالى-: (لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ)،"٤٧" ويُقصد بذلك أنّ الإنسان لا يملّ من التوجّه لله بالدُّعاء لتحقيق ملذّات الحياة الدُّنيا، سواءً على الغِنى والمال، أو الولد، وغير ذلك من الملذّات، دون القانعة والرضا بما نال، ودون التطلّع لِما أعدّه الله على الآخرة من النّعيم المُقيم."٤٨"

النسيان: يُطلق لفظ النسيان على القرآن، ويُراد بها معنيَين؛ الأوّل: نسيان الشيء، وزوال العلم به، والثاني: ترك العمل بشكّلٍ متعمّدٍ، وهو المقصود بقَوْله -تعالى-: (نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)،"٤٩" أي تَرَكُوه فتَرَكَهُم؛ ذلك لأنّ الله لا ينسى، وقال -تعالى-: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)،"٥٠" والنسيان على الآية السابقة يُراد به التَرْك العمد. الظلم والجَهْل: وقد قال الحسن: "ظلوماً لنفسه، جهولاً لأمر ربّه"، على تفسير قَوْل الله -تعالى-: (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)،"١٨""٥٢" وقد ورد وصف لطبائع الإنسان مجملاً على القرآن، بقَوْله -تعالى-: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)،"٥٣" فقد بيّنت الآية أنّ التكاليف التي يفرضها الدِّين من الأمور الواجبة، ويأمر بها الشّارع؛ أمرٌ يصعُب تنعل فيه، ويخافه كلّ صاحبٍ قوّةٍ، لا تستطيع الجبال حَمْله، بالرغم من مكانتها، وحجمها، وإن حاولت، ومع ضعف الإنسان، وجَهْله؛ فإنّه حَمَلَها، وقد ظَلَمَ نَفْسه بذلك؛ إذ حمّلها ما لا تطيقه."٥٤"

المطلب الثانى: حكمة ذكر صفات الإنسان فى القرآن

بيّنت العديد من الآيات القرآنيّة تنبّه ما خُلِق عليه الإنسان من صفات الشرّ؛ لتجنّبها وعدم الاستسلام لها، ومقاومتها بصفات الخير التي طبع عليه كذلك، وقد ذُكرت عدّة صفاتٍ على القرآن الكريم بطريق الذّم، بعرض أفعال الأشرار، وبِما علمها الكثير من أنّها طِبَاع شرٍّ، ولذلك لا بدّ من الحرص من نتائجها، وعدم الاستسلام لها، والانتباه بأنّها شرٌّ،"٥٥" وكذلك فإنّ الحكمة من خَلْق الشّهوة والهوى؛ بيان قدرة الإنسان على المقاومة، ومحاربة الشيطان، وما يزيّنه من المعاصي، والمنكرات،"٥٦" والجدير بالإنسان البحث عن طُرق جهاد نَفْسه، وطُرق تزكيتها، وتحقيق الطمأنينة والسّكينة عليها، والمُجاهدة على سبيل تحقيق ذلك، وعدم ظُلمها باتّباع الهوى والشيطان، فقد قال الله -عزّ وجلّ-: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)."٥٧""٥٨"

المطلب الثالث: الإنسان والإنس فى القرآن

عند إحصاء تلك المفردات على القرآن الكريم يرينا صورة عامة لحجم استخدام كل مفردة ولهذا حرصت على أن أبدأ على تتبع عدد مرات استعمال كل مفردة على القرآن الكريم فكانت النتيجة كالتالي: الإنْسَانْ : ذكرت على كتاب

الله ٥٦ ستٌّ وخمسون مرة.   الإنس : ذكرت على كتاب الله ١٤ أربعة عشر مرة.
وبذلك يكون المجموع ٧٠ مرة لكلا المفردتين

المطلب الرابع: مفردة الإنسان فى القرآن الكريم

الإِنْسَانْ: ويُجمع على مفردة "الإِنْسْ" فالارتباط المعنوي بين تلك المفردتين "الإِنْسَانْ ، الإنس" ومفردة الإِنْسَانْ يقصد بها على كتاب الله : كل مخلوق من سلالة آدم عليه السلام ، وهي مفردة ذات دلالة شاملة لكل جنس ذكراً كان أم أنثى ، مؤمناً كان أو غير مؤمن ، ولم أرى أن هناك ارتباط مباشر بين مفردة (الناس) ومفردة (الإنسان) كما يقول بعض أهل اللغة فإن القرآن إنما اتفق عليه معنى الإنس والإِنْسَانْ ولم يتفق عليه معنى النَّاس معهما، ثبت بجلاء أن مفردة الإنسان عندما تذكر على كتاب الله فإنها تستعمل على سياق بيان الضعف على جانبين على مادة خلق ابن آدم وضعف نفسه وارتبط ذكر الإنسان بالنقص والجهل وكل سلوك مقيت يقترفه هذا المخلوق ، فكانت مفردة الإنسان مرادفة جامعة من جوامع الشر ، من سوء وما يحيط به من حقارة وضعف وجهل وكذلك جمع (إنسان) وهو (الإنس) فلم تذكر على سياق إلا على سياق كسياق مفردة (الإنسان) ، ونصنف ذكر الإنسان على ضربين لا ثالث لهما ، أولهما بيان ضعف وهوان مادة الخلق ، وثانيهما ضعف نفسه وسوء طويته وركونه لشهواته

والأمثلة على ذلك كثيرة منها لله:

" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانْ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون".

وقد جمع ربنا جل وعلا على هذه الآيات وقرن مفردة الإِنْسَانْ بأكثر الصفات سوءاً فاقترن الإِنْسَانْ بالصفات التالية (اليأس ، الكفر ، الإسراف على الذنب ، الظلم ، الخصام ، العجلة ، البخل والتقتير ، الجدال ، الجهل ، القنوط ، الإعراض ، الهلع والخوف ، ارتكاب الذنب، الطغيان ، الخسران ، الجحود) فارتبط كل خلق ذميم بمفردة الإِنْسَانْ بل أتى معظمها بصيغة المبالغة (قنوط ، كفور ، قتور ، هلوع ، ظلوم) وكان للكفر النصيب الأكبر فارتبط الإِنْسَانْ بالكفر بصيغه المختلفة على ثمانية مواضع ، وارتبط باليأس ثلاث مرات وهناك من الصفات السيئة ما ذكر أكثر من مرة كالجدل والظلم والآيات التي لم يرد عليها الذم للإنسان صراحة فقد ذمته ضمناً.

والآيات التي ذمت الإنسان وكفره وسوء رابطته مع ربه هي : "يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانْ ضَعِيفًا" "النساء:٢٨"

"وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِعلنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" "يونس:١٢"

صور جحود الإنسان

المطلب الخامس: صور جحود الإنسان لربه

صورة من صور جحود الإنسان لربه ونسيانه لفضله عليه، أنه إذا أصيب بالضر فزع للدعاء والتضرع فما أن يجيب الله دعاءه ويكعليه ويكشف ما به حتى نسي ما كان منه من تذلل وضعف وشكوى.

"وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ " "هود:٩"

وهذه صورة بشعة من صور اليأس المقترن بالكفر فعندما ينزع الله صحة أو مال من ابن آدم (الإنسان) فهو يئوس من عودتها إليه بمعنى مصرٌّ على اليأس يظهره دوماً على سره وعلانيته مظهراً التذمر المستمر والمتكرر ونسيان ما كان من سابقاً من يدٍ ونعمٍ أكرمه الله بها، وهكذا على ما يلي من آيات ذكر عليها الإنسان وذكر معه سوء طويته وخسة نفسه: "وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" "إبراهيم:٣٤"فهو ظالم لنفسه كافر بنعم الله عليه برغم أنه جل جلاله يُسأل ويعطي بلا عدد ولا حصر. " وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا " "الإسراء:١١"

فالإنسان لا يدرك خطورة الدعاء بالشر وتبعات إجابته علىدعو متضرعاً بحدوث الشر كما يتضرع ويخلص على الطلب بحدوث الخير غير مدرك لما سيتبع إجابة ذلك الدعاء.

" وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ على الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا " "الإسراء:٦٧"
من صور جحود الإنسان لفضل الله عليه ونسيان حاله عند رؤية هول الهلاك وتضرعه لله حتى إذا نجاه أعرض وعصى وقسي قلبه على ربه الذي كان به رؤوفاً رحيماً والإعراض بعد رؤية هذا الهول من أعظم صور الجحود والاستكبار والكفر."وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُسًا" "الإسراء:٨٣"

وعلى هذه الآية صورة أخرى من فساد نفس الإنسان وسوء طويته فقدم تعالى حاله عند الإنعام وكيف أنه يعرض غير مستحضر لما أفضل الله عليه من خير ، وحين وقوع الشر عليه يئس متناسياً جاحداً بأن من بدأه بالنعم سبحانه قادر على كشف ما به من ضر.

{ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا } "الإسراء:١٠٠" يخبرنا جل وعلا عن الخصلة السيئة والصفة الذميمة على الإنسان وهي البخل والإمساك فلو كان يملك الإنفاق من خزائن الله التي لا تعلم ولا تعد ولا تنفد فإنه سيتردد على الإنفاق وتغلب صفة البخل والتقتير عليه ، فليحمد الناس ربهم أنه الكريم العظيم ، الحليم العليم لم يجعل خزائنه إلا بيده وحده سبحانه.

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا على هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا } "الكهف:٥٤"

فعندما يكون ابن آدم على لبوس الإنسان فهو مجادل لا يكعليه ما ساق ربه من أمثلة وحكمة وفرقان وحجة بالغة ولا يزال يجادل حتى ولو رأى الحق رأي العين.

{ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا } "مريم:٦٦"

وهذه صورة من صور كفر الإنسان بالبعث إذ يسأل سؤالا استنكارياً إنكارياً جحوداً واستهزاءً بحقيقة البعث لما أُشرب على نفسه من صفاقة وسوء أدب مع خالقه جلت قدرته

{ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } "الحج:٦٦"

وهي صيغة المبالغة والكثرة على الكفر مع لام التوكيد أي أنه برغم تعدد الأفعال الربانية بين الإماتة والإحياء فإن الإنسان بصبغته (الإنسانية) لكفور بربه وبقدرته وفعله الظاهر المعلوم ولكن لا ينطبق على ابن آدم المؤمن الطائع المطمئن قلبه بالإيمان

١٢ { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } "الأحزاب:٧٢"

فقد اختصه الإنسان الله بالأمانة "الإرادة والتكليف" وجعله مخيراً على فعله تفضيلاً على سواه من المخلوقات وأعظمها السموات والأرض والجبال ولكنه كان ظلوماً لنفسه حين فرط على اختيار الخير واستبدله بالشر ، وجهولاً بما يجر عليه ذلك الفعل من عاقبة وبما أضاع بتفريطه من رفعة وثواب وعلى ما سوى الإنسان من بني آدم من المؤمنين فلا ينطبق عليهم هذا النعت بالظلم والجهل ، وهذه الآية تنطوي على معانٍ عميقة قل أن يحاط بها وتفهم ولعلى إن شاء الله آتي عليها على مواضع أخرى. " خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ" "النحل:٤"

المطلب السادس: دمج خَلق الإنسان بصفاته

يجمع الله جل وعلا للإنسان بين حقارة مادة خلقه وسوء طويته ونفسه على صورة بديعة إذ كان نطفة حقيرة قذرة خلقه الله منها وتفضل عليه وأكرمه ورزقه على بادل ربه ويبارزه بالخصام والعداوة يبيْنُ عنها بلسانه الذي لم يكن شيئاً حين كان نطفة حقيرة ، ولم يتفكر مما خلق وكيف كان ومن أوجده ورزقه وجعل منه مخلوقاً حسن الخلق ناطق مفكر كاسب للرزق بما قدره الله له من مهارة وفطرة.

"أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ" "يس:٧٧"

وهذه صورة أخرى شبيهة بما سبق تبدأ بالاستفهام الاستنكاري وهي متسقة مع السياق الذي يسبقها ويليها .

{ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } "الزمر:٤٩"

يدعو الإنسان عند حلول المصيبة ومجرد المس من الضر فإذا أعطاه الله من عطاءه وأكرمه من كرمه نسب ما حصل إليه لنفسه والعلم الذي تعلمه وهي صورة من صور الجحود الكفر الذي يقترفه الإنسان بحق ربه والظلم الذي يوقعه على نفسه.

{ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ علىئُوسٌ قَنُوطٌ } "فصلت:٤٩"

فمهما تتابع عليه النعم فإنه لا يكتفى من الدعاء وطلب المزيد من الخير ولكنه إن أصيب بالشر مرة يئس وقنط من رحمة الله ونسي أن نعم الله كانت تتابع عليه وتتوالى إليه قبل هذا الشرّ ، ولو كان يخعلى خلفه خيراً لا يتحصل إلا بذلك الشر.

{ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } "فصلت: ٥١"

وهذه صورة من صور اللؤم والجحود عند الإنسان فهو لا يتذكر ربه المنعم عليه عند حلول النعماء ولكن حين مساس الشر به يسهب على الدعاء والتضرع

" فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عليهِمْ حَفيظًا إِنْ عليكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ" "الشورى:٤٨"

فهو فرح بالرحمة ظناً أنها رضى من الله والله لا يحب الفرحين ، وإن أصابته السيئة بسوءه وبما قدمت يده كان كفوراً بيد الله إليه ونعمته عليه.

"وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ" "الزخرف:١٥"

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) "المعارج"

فالهلع من الصفات النفسية التي وجدت مع خلق آدم ويعني الخوف والجزع الشديد ، فهو على حال أصابه الشرّ والسوء كان جزعاً خائفاً منه مفتقداً للثقة برحمة الله لقلة إيمانه وطغيان سوء نفسه على ثقته بربه ، وإذا أصابه خير من الله كان جزعاً خائفاً أيضاً من فقدان هذا المال علشح به خشيةً من نفاده وغيَّب عن قلبه أن ما أصابه من خير إنما هو بيد الله ومن آتاك خيراته قدير أن يتابع علىك النعم ، وإن أصابه سوء فالسوء أمر نسبيّ قد يحمل على طياته الخير

الفصل الثاني

الأصل فى تسمية الإنسان

حين شرع الإسلام حقوق الإنسان لم يقف فيها عند حدود التوصيات، وإنما ارتقى بها إلى درجة أنه اعتبرها من نوع الفرائض والواجبات، ولكن لا كالفرائض والواجبات التي تلزم جانباً من جانبي العلاقة، وإنما هي ملزمة لجانبى العلاقة على حد سواء.
لقد عرفت الحضارة الإسلامية هذه الحقوق، ومارستها "قديماً لا كمجرد حقوق للإنسان وإنما كفرائض إلهية وتكاليف وواجبات شرعية" تفرض على كل من تتعلق به مراعاتها؛ الان الله سبحانه وتعالى خلق الأشياء كلها من أجل الإنسان كما ورد في آلحديث القدسي وقد حرم الله تعالى الإنسان وحعل حرمت دمه عند الله اعظم من هدم الكعبة وقد حرم سفك دمه قال تعالى ومن أحياها فكأنما أحيا آلناس جميعا ولم يعرف دين كرم بنى ادم مثل الإسلام ومن هنا جاء لارتباط المعنوي بين تلك المفردتين (الإنْسَانْ ، الإنس) ومفردة الإنْسَانْ يقصد بها في كتاب الله : كل مخلوق من سلالة آدم عليه السلام ، وهي مفردة ذات دلالة شاملة لكل جنس ذكراً كان أم أنثى ، مؤمناً كان أو غير مؤمن ، ولم أرى أن هناك ارتباط مباشر بين مفردة (الناس) ومفردة (الإنسان) كما يقول بعض أهل اللغة فإن القرآن إنما اتفق فيه معنى الإنس والإنْسَانْ ولم يتفق فيه معنى النَّاس معهما وسيأتي تفصيل ذلك وإثباته في ثنايا ما سأعرضه بإذن الله.

ثبت بجلاء أن مفردة (الإنسان) عندما تذكر في كتاب الله فإنها تستعمل في سياق بيان الضعف في جانبين في مادة خلق ابن آدم وضعف نفسه وارتبط ذكر الإنسان بالنقص والجهل وكل سلوك مقيت يقترفه هذا المخلوق ، فكانت مفردة الإنسان مرادفة جامعة من جوامع الشر ، فيقترن مع ما يظهر منه من سوء وما يحيط به من حقارة وضعف وجهل وكذلك جمع (إنسان) وهو (الإنس) فلم تذكر في سياق إلا في سياق كسياق مفردة (الإنسان) ،

المطلب الأول: التوظيف القرآنى لمفردة الإنسان

وتسمية "الإنسان" ذاتها تعود للنسيان عمداً وسهواً ، فكفره نسيان فضل ربه عليه، ونسيان عاقبة ظلمه وطغيانه ، والإنسان ينسى إشارات ربه وتحذيره بما يصيبه من

شرور ، وينسى إنعام ربه وخيراته بما يغدق عليه من نعم فكانت مفردة الإنسان جامعة لكل شرٍّ يقترفه فأتت هذه المفردة على القرآن الكريم لدلالتها على ضعف خلقته وخُلُقه، ولعلنا نتعلم من ذلك ونتمثل به على استعمالنا لتلك المفردة ، فنلاحظ استعمال المفردة على حياتنا على سبيل التكريم على أحايين كثيرة على الوقت الذي وجب أن تتماهى خطاباتنا ومقالاتنا ونتاجنا الفكري مع القرآن الكريم فنوظف المفردة بما يتفق مع التوظيف القرآني لها ، فتلامس الجانب السلبي إذا كانت على القرآن الكريم كذلك، وتلامس الجانب الإيجابي إذا كانت على القرآن كذلك. ولا شك بأن التوظيف القرآني العجيب لمفردات اللغة العربية صورة بلاغية بديعة لم تحظى بالتحليل الكافى بل ونكاد نلحظ انفصال بين الخطاب الواقعي مع التوظيف القرآني للمفردات ، ولا تسلم من سوء الاستعمال هذا حتى المصنفات الإسلامية. وإن كنا نعلم بداهة أن البلاغة هي من أعظم صور الإعجاز على القرآن الكريم.

المطلب الثانى: مراحل خَلْق الإنسان في القرآن الكريم

مراحل خَلْق الإنسان في القرآن الكريم مراحل خَلْق آدم عليه السلام ابتدأ الله -سُبحانه وتعالى- خَلْق آدم -عليه السلام- من تراب الأرض؛ قال -تعالى-: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ)، ثمّ أُضيف إلى ذلك التراب الماء إلى أن أصبح طيناً، فالطين في أصله ترابٌ أُضيف إليه الماء؛ قال -تعالى-: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)، ثمّ أصبح الطِّينُ لازِباً؛ أي مُلتصِقاً ببعضه البعض، ومُتماسِكاً؛ قال -تعالى-: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)، ثمّ صار الطِّين ذا لون أسود، وهو ما يُعرَف بالحَمَأ المَسنُون، ثمّ تعرَّض للرِّيح حتى أصبح صَلباً كالفَخّار، قال -تعالى-: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ)، ثمّ نفخ الله -تعالى- في آدم من رُوحه، فدبَّت الحياة فيه، ثمّ خَلَقَ الله من ضِلْع آدم زوجته حوّاء؛ قال -تعالى-: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً). مراحل خَلْق الإنسان بعد آدم عليه السلام خَلَقَ الله -تعالى- آدم -عليه السلام- على الصورة التي ذكرها في كتابه العزيز، ثمّ خَلَقَ ذُرّيته من بعده من نُطفةٍ؛ أي من ماء الرَّجُل الذي وصفه الله -تعالى- بالماء المَهين، والذي يلتقي بالبويضة؛ ليتكوّن الجَنين بعد ذلك؛ قال -تعالى-: (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ)، وقال في آيةٍ أخرى: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ). مرحلة النُّطفة ذكرَ الله تعالى في كتابه العزيز أُولى مراحل خَلْق الجَنين في بطن أمّه، وهي: مرحلة النُّطفة؛ وتبدأ بالتقاء ماء الرَّجل ببويضة المرأة؛ لتنشأ النُّطفة

باختلاطهما؛ قال -تعالى-: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)، وتجدر الإشارة إلى أنّ الله -سُبحانه- وصفَ النُّطفة بالأمشاج؛ لأنّها تكوّنَت من اختلاط ماء الرَّجل ببويضة المرأة؛ فالأمشاج جَمع (مَشِج)، وتعني: كلّ شيئَين مُختلِطَين. مرحلة العَلَقَة ورد ذِكْر مرحلة العَلَقَة في القرآن الكريم كمرحلة من مراحل خَلْق الجَنين في بطن أمّه، وهي مرحلةٌ تَعقُبُ مرحلةَ النُّطفة، وذلك في خمسة مَواضع من كتاب الله،وتُعرَّف العَلَقَة بأنّها: الدَّم الجامد، وهي تتعلّق بجِدار الرَّحم، وتستمرّ تلك المرحلة إلى حين الدخول في طَوْر المُضغَة؛ قال -تعالى-: (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّـهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ). مرحلة المُضْغَة يُشير معنى المُضْغَة في اللغة إلى القَدْر من الطعام، أو غيره، والذي يكون قابلاً للمَضْغ أو اللَّوك باللسان، وهي تعني أيضاً: القَدْر البسيط من الشيء، أو المادّة؛ ولذلك يُقال للأمور الصغيرة، والحوادث اليسيرة: مُضَغ الأمور؛ أي يسيرها، وصغيرها، وتأتي مرحلة المُضغة بعد مرحلة العَلَقَة، وتشتمل على مرحلَتَين؛ أولاهما: المرحلة التي تكون فيها المُضغْة غير مُخلَّقةٍ؛ أي أنّ مَعالم الجَنين لا تكون واضحة، ثمّ يتحوّل الجَنين إلى المُضغة المُخلَّقة في المرحلة الثانية؛ إذ يظهر التغيير الحقيقيّ على خَلْقه؛ فيظهر شكل الأعضاء، وتنضج الخلايا، ويصبح الإنسان في أحسن تقويمٍ؛ قال الله -سُبحانه وتعالى-: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ).

مرحلة نُموّ الجَنين تكون آخر مرحلةٍ من مراحل خَلْق الجَنين في بطن أمّه بخَلْق العِظام، وتصلُّب البَدَن، وتمييز الأعضاء عن بعضها البعض؛ فيُعرَف الرأس من البَدَن، ثمّ تُكسى العِظام باللحم؛ ليكتمل خَلْق الجَنين، ويغدو في أحسن صورةٍ وهيئةٍ؛ قال -تعالى-: (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّـهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، وقد قال الإمام الشوكانيّ في ذلك: "أي أنبت الله -سُبحانه- على كلّ عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويُناسبه".

المطلب الثالث: حكمة الله من خلق الإنسان

إذا كانت الملائكة قد عبدت الله عز وجل قبل خلق البشر، فلماذا خلق البشر؟ بيّن الله سبحانه حكمته من خَلقِ السماوات والأرض، وخلقِ ما على الأرض وخَلقِ الموتِ والحياة، وهي الابتلاء للجن والإنس، كما قال تعالى: {وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً} هود: ٧. وقال تعالى: {إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً} [الكهف: ٧].
فعُلم من هذه الآياتِ أن الله خلق ما خلق لابتلاء العباد ليتبين من يكونُ منهم أحسنَ عملاً، ويظهرُ ذلك في الواقع حقيقة موجودة، بل بيّن سبحانه في كتابه أن ما يجري في الوجود من النعم والمصائب لنفس الحكمة وهي الابتلاء الذي يُذكر أحياناً بلفظ الفتنة، قال تعالى: {أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} [العنكبوت: ٢]. فبهذا الابتلاءِ يتبينُ الصادقُ من الكاذبِ.   والمؤمن من الكافر مما هو معلوم للرب قبل ظهوره في الواقع، وقد أخبر سبحانه وتعالى في موضع من القرآن أنه خلقَ الناسَ ليختلفوا ويكونُ منهم المؤمن والكافر، ويترتبُ على ذلك ما يترتبُ من ابتلاءِ الفريقين بعضهم ببعض، قال تعالى: {ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم} [هود: ١١٧، ١١٨]. وأما قوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦] فقد قيل: إن المعنى لآمرهم وأنهاهم فيعبدوني، وأمره ونهيه سبحانه وتعالى هو ما بعث به رسله، وفي هذا ابتلاء للعباد يكشف به حقائقهم حتى يميز الله الخبيث من الطيب.
وقد ذكر سبحانه أن من حكمته من خلق السماوات والأرض أن يعلم العباد كمال علمه وقدرته قال تعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق: ١٢] ولم يكن خلقُ الله لآدم أو للجن والإنس لحاجةٍ به إليهم ولا لحاجةٍ إلى عبادتهم، لكنه تعالى يحب من عباده أن يعبدوه ويطيعوه، وعبادته هي محبته والذل لـه والافتقار إليه سبحانه، ونفع ذلك عائد إليهم. كما في الحديث القدسي: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد

فسألوني. فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخْيَط إذا أدخل البحر" رواه مسلم (٢٥٧٧). وقول السائل: (إذا كانت الملائكة قد عبدتِ الله عز وجل قبل خلق البشر، فلماذا خُلق البشر؟) جوابه في قوله تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون} [البقرة: ٣٠]، يتضمن أن لـه حكمة في خلق آدم واستخلافه في الأرض، وإن كان يحصل من بعض ذريته ما يحصل من الإفساد وسفك الدماء، والآية إلى قوله عن الملائكة: {قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم} [البقرة: ٣١-٣٢] ففوضت الملائكة الأمر إلى علمه وحكمته.

المطلب الرابع:الفلسفة الحقيقية لوجود الإنسان

إنّ العلّة من خلق الإنسان والفلسفة الحقيقيّة لوجوده هي ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات : ٥٦] ، أيّ انّ غرض الخلقة هو كون الخلق عابدين لله تعالى ، لا كون الله معبوداً.، وهذا الفرض « وهو كون الخلق عابدين » أمر يستكمل به الإنسان ، وترتفع به حاجة الإنسان فيثاب على عبادته وينتفع بها. ولنا أن نقول : إنّ خلق الإنسان لأجل كونه عابداً لله ، وغرض العبادة المعرفة الحاصلة بها لله والخلوص لله ، فهذه المعرفة لله والخلوص له هو الغرض الاقصى ، والعبادة تكون غرضاً متوسطاً.، وبهذا يتبيّن أنّ الغرض من الخلقة : العبادة التي يكون غرضها معرفة الله والخلوص له ، فإذا كان الإنسان يسعى إلى العبادة ، والعبادة تسعى به إلى معرفة الله والخلوص له ، فقد وصل الإنسان إلى الكمال وهو العلّة من الخلقة ، وهذه الغاية تحصل في الكون ؛ لأنّ بعض المخلوقين يعبدون الله وبعبادته يصلون إلى معرفته والخلوص له فقد حصلت الغاية من سرّ الخلقة والعلّة لهان ويمكن القول : بأنّ العلّة من الخلقة هو العبادة ، والعبادة هو المثول بين يدي ربّ العالمين بذلّ العبودية وفقر المملوكيّة قبال العزّة المطلقة والغنى المحض ، فإنّ عرف الإنسان ذلك فقد كمل واهتدى ، وإذا اهتدى الناس فقد صلح العالم ، ولذلك قال تعالى : (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ) [الفرقان : ٧٧] ، حيث بدّل العبادة بالدعاء، إذاً حقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلّ والعبوديّة وتوجيه وجهه إلى مقام الخالق ، وهذه المعرفة الحاصلة من العبادة هي التي فُسّرت بها العبادة ، فإذا انقطع الإنسان من كل شيء وعن نفسه وذكر به وتوجّه إليه فقد عرف نفسه وعرف ربّه وبذلك صار

مهتدياً صالحاً ، فإذا كان كلّ الناس كذلك ، فقد وجد المجتمع الصالح ووجدت الجنّة في الأرض.

هذا الإنسان الذي سخر الله له كل ما في الكون وكرَّمه على باقي المخلوقات، خلقه الله لحكم عظيمة؛ فهو تعالى منزه عن العبث والباطل، قال تعالى{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:١٩٠- ١٩١]، وقال تعالى عن ظن الكفار السيء {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧]

ولم يخلق الله الإنسان ليأكل ويشرب ويتكاثر، فيكون بذلك كالبهائم، لكنه تعالى قد كرَّم الإنسان وفضَّله على كثيرٍ ممن خلق تفضيلًا، ولكن أبى أكثر الناس إلا كفورًا؛ فجهلوا أو جحدوا الحكمة الحقيقية من خلقهم، وصار كل هَمِّهم التمتع بشهوات الدنيا، وحياة هؤلاء كحياة البهائم، بل هم أضل، قال تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١٢]، وقال تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]
والناس كلهم يجزمون أن جميع أعضاءهم خُلقت لحكمة، فهذه العين للنظر، وهذه الأذن للسمع، وهكذا..، وهل يُعقل أن تكون أعضاؤه مخلوقة لحكمة ويكون هو بذاته مخلوقًا عبثًا؟! أو أنه لا يرضى أن يستجيب لمن خلقه عندما يخبره بالحكمة من خلقه؟!
إذا كان كل هذا الكون سُخِّر من أجلك، وإذا قامت آياته وأعلامه شواهد أمام ناظريك تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإذا علمت أن بعثك وحياتك بعد موتك أهون من خلق السماوات والأرض، وأنه سبحانه خلقك في أحسن صورة، وأكرمك أيما تكريم، وسخر الكون لك، فما الذي غرَّك بربك الكريم؟! قال جل ثناؤه{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الإنفطار:٦ - ٨] فأنت في النهاية ملاقٍ ربك، قال جل ثناؤه{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ١١ وَيَصْلَى سَعِيرًا} [الإنشقاق:٦ - ١٢]

فسِرْ في طريق سعادة الدنيا والآخرة بالعيش للحكمة التي خلقت من أجلها، وعند ذلك تسعد في حياتك، وتطمأن وتسعد عند ملاقاة ربك بعد الموت، والكون كله كذلك عابد لربه؛ فكل مخلوقاته تسبح بحمد ربها، قال تعالى{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الجمعة: ١] ، وتسجد لعظمته، قال جل ثناؤه{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ}[الحج: ١٨] ، بل إن هذه الكائنات تصلي لربها صلاة تناسبها، قال عز اسمه{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ }[النور: ٤١] فهل يليق بك أن تتخلف عن هذا المشهد المهيب؟! فتكون مهانًا، صدق الله القائل {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨]

المطلب الخامس: خلق الإنسان كما يرآه العلماء في القرن الحادي والعشرين

حقائق مذهلة تتجلى في مراحل خلق الإنسان كما يراها العلماء في القرن الحادي والعشرين، وكيف جاء وصفها في كتاب الله تعالى، من أكثر الظواهر غرابة في الطبيعة ظاهرة خلق الإنسان! فخلية واحدة تنمو وتصبح أكثر من ١٠٠ تريليون خلية، كيف تحدث هذه العملية، ومن الذي يتحكم بهذا البرنامج الدقيق، هل هي الطبيعة، أم خالق الطبيعة عز وجل؟أحبتي في الله! هذا البحث ليس لمجرد الاطلاع أو المعرفة، بل هو عبادة لله تعالى، واستجابة للأمر الإلهي لنا: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) لندرك بعد هذا النظر قدرة الله على إعادة خلقه بعد الموت: (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ). فالتفكر في خلق الله هو عبادة عظمى لا تقل أهمية عن الصلاة والصوم والزكاة، لأن هذا التفكر يهذِّب النفس ويجعل الإنسان أكثر تواضعاً أمام عظمة الخلق، بل ويزيد المؤمن إيماناً وتسليماً لله عز وجل.في هذه الرحلة الإيمانية، سوف ننظر إلى مراحل خلق الإنسان كما صوَّرتها أجهزة العلماء في القرن الحادي والعشرين، ونتأمل هذه المراحل كما صورها لنا القرآن قبل أربعة عشر قرناً.فعندما يدرك الإنسان أصله وهو الطين، ثم النطفة التي لا تكاد تُرى، يزداد تواضعاً ويتخلص من غروره وتكبره، يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ

صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) [الانفطار: ٦-٨].إن أغرب ما في الأمر أن الخلية الأم تبدأ بالانقسام ولكن لا تُنتج نفس الخلايا، بل تنتج خلايا منوعة منها ما يشكل الجلد، وأخرى للعظام، وأخرى للدماغ، وخلايا للعين وخلايا للقلب... مَن الذي يخبر هذه الخلايا بعملها وبمهمتها وبهذا التطور؟ أليس هو الله القائل: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان: ٢].يتألف البحث من ٥٢ شريحة بوربوينت تتضمن

المطلب السادس:

الحقائق العلمية لمراحل تطور الجنين

وكيف جاء ذكرها في كتاب الله بمنتهى الدقة.

الإعجاز في النفس - الإنسان ذلك الكائن العجيبالإنسان ذلك الكائن العجيب هل فكرت يوماً أن تنظر إلى جسدك وتساءلت ممَّ يتركب، إنه ببساطة عبارة عن ماء وتراب! يقول تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون).....الإنسان هو كائن حي من أعقد الأحياء على وجه الأرض، كشفت البحوث الطبية عن حقائق مذهلة تدل على عظمة الخالق تعالى القائل: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) [الذاريات: ٢١].والإنسان يتألف من عدد ضخم من الأجهزة أهمها القلب. فالقلب هو من أعجب الآلات في جسم الإنسان، فهو يضخ كل يوم أكثر من (٨٠٠٠) لتراً من الدم. في دماغ الإنسان أكثر من مئة ألف مليون خلية!! جميعها تعمل بنظام دقيق ومُحكم. وفي كل عين يوجد أكثر من مئة مليون من المستقبلات الضوئية. وفي كل أذن أكثر من ثلاثين ألف خلية سمعية! وفي دم الإنسان أكثر من(٢٥) مليون مليون كرية حمراء وأكثر من (٢٥) ألف مليون كرية بيضاء.في معدة الإنسان يوجد أكثر من ألف مليون خلية! وفي اللسان توجد أكثر من تسعة آلاف حليمة ذوقية. وفي كل يوم يتنفس الإنسان أكثر من(٢٥) ألف مرة يسحب خلالها اكثر من (١٨٠) ألف لتر من الهواء!وهكذا حقائق لا تنتهي وأرقام ضخمة أكبر من التصور. كل هذه التعقيدات سخرها الله تعالى لراحة الإنسان واستمرار حياته على أحسن حال، يقول تعالى: (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) [السجدة: ٧]

.لقد برز علم الحياة أو الأحياء إلى الوجود مع اكتشاف الإنسان لأسرار الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان. والحقيقة الثابتة التي يؤكدها علماء الأحياء هي أنه لا

وجود للحياة من دون ماء. فالماء يمثل نسبة جيدة في تركيب خلايا أي كائن حي، وانعدام الماء يعني الموت! حتى إن عمل هذه الخلايا يعتمد أيضاً على الماء، فهو المحرك للتفاعلات الكيميائية داخل جسم الإنسان والحيوان والنبات.وهنالك شبه تأكيد لدى العلماء بأن الحياة بدأت من الماء، وهنا يأتي كتاب الله تعالى ليؤكد هذه الحقائق ويردّ جميع أشكال الحياة للماء، يقول تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) [الأنبياء: ٣٠].ويقول الله تعالى عن بداية خلق الدواب التي تدبُّ على الأرض وأنها مخلوقة من الماء: (والله خلق كل دابة من ماء) [النور: ٤٥].حتى إن الأرض الجافة الميتة التي لا يُرى فيها أي مظهرٍ للحياة عندما يُنْزِل الماء عليها تجد أن أشكال الحياة قد بدأت من النباتات والحشرات والحيوانات وغير ذلك، يقول تعالى: (والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون) [النحل: ٦٥].إن العلماء اليوم يقولون إن هنالك آثاراً للماء على كوكب المريخ وهذا ما يدفعهم للاعتقاد بأنه يمكن لحياة بدائية أن تكون موجودة على هذا الكوكب.إذن الحقيقة العلمية المؤكدة هي أنه حيث يوجد الماء توجد الحياة، حتى إن الإنسان على سبيل المثال يتركب جسمه من الماء ومعادن وأشباه معادن. يشكل الماء في جسم الإنسان بحدود الثلثين! والثلث الباقي هو مواد جافة جميعها موجودة في التراب والماء أي الطين.لقد تمَّ تحليل مكونات جسم الإنسان وعناصره الأساسية، والإنسان يتكون بشكل رئيسي من الماء فثلثي الإنسان هو ماء! وهنا نتذكر قول الحق عز وجل: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) [الأنبياء: ٣٠]. ولكن ماذا عن مكونات الإنسان غير الماء؟ إنها بالضبط العناصر الموجودة في التراب. فمكونات الجسم البشري هي الكربون والكلور والكبريت والفوسفور والكالسيوم والحديد.. وغيرها وجميع هذه المواد موجودة في تراب الأرض. وهذا دليل علمي على أن الإنسان مخلوق من التراب.يعتبر الإنسان من أعقد المخلوقات على وجه الأرض، فجسده يحوي تريليونات الخلايا، وكل خلية أشبه بجهاز كمبيوتر فائق الدقة، وتعمل هذه الخلايا بالتناسق والتناغم فلا نجد أي خلل أو اضطراب، وهذا من رحمة الله تعالى بنا، هذا الإله العظيم ألا يستحق أن نسجد له شكراً؟!يقول عز وجل مخاطباً أولئك الملحدين الذين لا يؤمنون بالحياة بعد الموت: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) [الحج:٥]. ويقول تعالى أيضاً عن خلق البشر: (ومن آياته أن خلقكم من تراب) [الروم:٢٠].وعندما يجتمع الماء والتراب يشكلان الطين، وهذا هو أصل الإنسان. يقول تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) [المؤمنون: ١٢]. ونتذكر قول الحق عز وجل هنا عن خلق البشر من الماء: (وهو الذي خلق من الماء بشراً) [الفرقان: ٥٤].إذن الإنسان

مخلوق من الماء بنسبة الثلثين تقريباً، والتراب بنسبة الثلث تقريباً. والآيات القرآنية تؤكد هذه الحقائق. إن القرآن عندما يتحدث عن خلق الإنسان وتركيبه إنما يعطينا التفاصيل الدقيقة. إن القرآن يخبرنا بمراحل خلْق الإنسان وتطوره في بطن أمه وبشكل يوافق تماماً أحدث معطيات العلم. فقد ثبت تماماً أن الإنسان يمر بمراحل في بطن أمه وقد سمى القرآن هذه المراحل بالأطوار في قوله تعالى: (وقد خلقكم أطواراً) [نوح: ١٤].وقد كان يُظن في الماضي أن عملية خلق الجنين في بطن أمه هي عملية مستمرة، ولكن بعد تطور العلم تأكد أن هنالك عمليات متعاقبة للخلق وفق أطوار محددة وبنظام دقيق وهذا ما نجده في قوله تعالى: (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) [الزمر: ٦].فسبحان الله! هذا الكائن العجيب الذي يحتوي دماغه فقط على أكثر من تريليون خلية عصبية، ولديه قدرات هائلة من الذكاء والتطور والتحكم والسيطرة على كوكب الأرض، هذا الكائن الذي صعد إلى القمر، ووصل إلى المريخ، وتمكَّن من استغلال ثروات الأرض والسيطرة والتحكم بما سخره الله له، هذا الكائن العجيب في نهاية المطاف هو عبارة عن ماء وتراب!

الفصل الثالث

الأرض وصلتها بالإنسان

ثم علاقة وثيقة الصلتبين كل من الأرض و الإنسان، فمنها خُلق، وعليها يحيا، ومنها يُبعث يوم القيامة. وقد اختارها سبحانه من بين الكواكب العديدة والمديدة التي بثها في هذا الكون ليعيش عليها الإنسان، ويبتلي الله عليها عباده من أحسن عملاً، ومن أضل سبيلاً. ولفظ الأرض: من حيث الدلالة اللغوية، يفيد ثلاثة أصول: الأول: كل شيء يسفل، ويقابل السماء، يقال لأعلى الفرس: سماء، ولقوائمه: أرض. الثاني: الزكمة،

يقال: رجل مأروض، أي: مزكوم. الثالث: الرعدة، يقال: بفلان أَرَضٌ، أي: رعدة.
ومما ألحق بهذه الأصول قولهم: أرض أريضة: حسنة النبات، زكية معجبة للعين.
والإُِرضة، بكسر الهمزة وضمها: الكلأ الكثير. وأرضت الأرض: كثر كلؤها.
والتأريض: تشذيب الكلام، وتهذيبه، والتثقيل، والإصلاح. ورجل أريض للخير، أي، خليق له، شبه بالأرض الأريضة. وجاء فلان يتأرض لي، مثل يتعرض لي. ويقال: فلان ابن أرض: إذا كان غريباً. والأَرَضة: دويبة بيضاء تشبه النملة.

المطلب الأول: حقيقة خلق السماوات والأرض

أجمعت الكتب السماوية السابقة على أن الله قد خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وجاء القرآن الكريم فأكد هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها

قوله تعالى "الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثمّ استوى على العرش ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكّرون" السجدة ٤.

ولكن القرآن الكريم لم يكتف بذكر هذه الحقيقة الكونية بل جاء بحقائق إضافية عن تفصيل هذه الأيام وكذلك عن الحال الذي كان عليه الكون عند بداية خلقه والحال التي سيؤول إليها. ومن أهم الحقائق التي تفرد بذكرها القرآن دون غيره من الكتب السماوية هي حقيقة أن السموات والأرض قد خلقهما الله في يومين اثنين ولم يستغرق خلقها ستة أيام كما جاء في قوله تعالى "قل أئنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها

وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم" فصلت ٩-١٢.

وكما هو واضح من هذه الآية المليئة بالحقائق المتعلقة بالأحداث التي مر بها خلق الكون،فإن الله قد خلق الأرض في يومين وكذلك خلق السموات في يومين، بينما تنص آيات أخرى كثيرة على أن مجموع أيام خلق السموات والأرض هي ستة أيام.

طرق المفسرين: وقد ذهب المفسرون القدامى مذاهب شتّى وهم يحاولون تفسير هذه الآية العجيبة والتوفيق بين الحقائق الكونية الواردة فيها وتلك الواردة في الآيات الأخرى.

لقد دار الجدل بينهم فيما إذا كان اليومان اللذان خلق الله فيها السموات هما نفس اليومين اللذين خلق الله فيها الأرض وهل الأيام الأربعة التي خلق الله فيها الجبال وقدّر فيها أقوات الأرض تشمل اليومين اللذين خلق الله فيها الأرض؟وإلى غير ذلك من التساؤلات. إن هذه الآية القرآنية إن لم ينزل بتفسيرها وحي لا يمكن بأي شكل من الأشكال تفسيرها من خلال التخمين والتفكير المجرد بل يحتاج تفسيرها إلى معرفة علمية كافية بالأحداث التي مر بها خلق الكون، فهذه الآية وغيرها من الأيات القرآنية المتعلقة بالحقائق الكونية يمكن تفسيرها فقط على ضوء الحقائق العلمية المكتشفة هذا إذا ما ثبت صحتها كما حصل مع الآيات القرآنية المتعلقة بحركة الأرض ومواقع النجوم ودور الجبال في تثبيت القشرة الأرضية. وسنشرح في ما يلي بعض الحقائق العلمية الأساسية التي اكتشفها العلماء المعاصرين للكيفية التي تم بها خلق هذا الكون والمراحل التي مر بها حتى أصبح على هذه الهيئة ثم نقوم بتفسير الآية القرآنية الآنفة الذكر على ضوء هذا الشرح.

المطلب الثانى: نشأة الكون حسب النظرية العلمية

لقد نشأ هذا الكون طبقا للنظريات العلمية الحديثة نتيجة لانفجار كوني عظيم انبثقت منه جميع مادة هذا الكون،حيث كان الكون عند ساعة الصفر على شكل نقطة مادية غاية في الصغر لها درجة حرارة وكثافة غاية في الكبر وقد أطلق العلماء على هذا الانفجار اسم "الانفجار العظيم". ولا يعرف العلماء على وجه التحديد ماهية المادة الأولية التي انبثق منها هذا الكون ولا من أين جاءت،ولماذا اختارت هذا الوقت

بالتحديد لكي تنفجر ولا يعرفون كذلك أيّ شيء عن حالة الكون قبل الانفجار وصدق الله العظيم القائل "ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا" الكهف٥١.

ويغلب على ظن العلماء أن مادة الكون كانت عند بداية الانفجار مادة صرفة ذات طبيعة واحدة وتحكمها قوة طبيعية واحدة. لقد بدأت هذه المادة المجهولة الهوية بالتمدد بشكل رهيب وبسرعات غاية في الكبر نتيجة لهذا الانفجار لتملأ الفضاء من حولها هذا إذا كان هناك ثمة فضاء،حيث يعتقد بعض العلماء أن المكان والزمان قد ظهرا مع ظهور هذا الانفجار. لقد كان الكون الأولي على شكل كرة نارية متجانسة تملؤها سحابة من المادة الصرفة،وظلت هذه الكرة تتمدد وتتسع بصورة مذهلة إلى أن وصلت درجة حرارتها إلى ثلاثة آلاف درجة بعد مرور ما يقرب من مائة ألف سنة. وعند درجة الحرارة هذه بدأت الجسيمات الأولية البسيطة كالكواركات واللبتونات والفوتونات بالتشكل من هذه المادة الصرفة،وبدأت كذلك قوى الطبيعية الأربعة التي كانت موحدة في قوة واحدة بالانفصال عن بعضها البعض.
ومع استمرار تناقص درجة حرارة هذا الكون الناشئ إلى قيم أدنى،بدأت مكونات الذرة الأساسية من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات بالتشكل من خلال اندماج أنواع الكواركات والليبتونات المختلفة مع بعضها البعض نتيجة لتأثير القوى الطبيعية المختلفة. وقد وجد العلماء أن البروتون يتكون من ثلاثة كواركات اثنين منهما يحمل كل منهما شحنة موجبة تساوي ثلثي شحنة البروتون والثالث يحمل شحنة سالبة تساوي بالمقدار ثلث شحنة البروتون أيّ أن شحنته الكلية موجبة وتساوي بالمقدار شحنة الإلكترون السالبة. وأما النيوترون فيتكون أيضاً من ثلاثة كواركات اثنين منهما يحمل كل منهما شحنة سالبة تساوي بالمقدار ثلث شحنة البروتون والثالث يحمل شحنة موجبة تساوي ثلثي شحنة البروتون، أيّ أن شحنته الكلية تساوي صفر. وممّا أثار دهشة العلماء أن أعداد وأنواع الكواركات التي انبثقت من هذا الانفجار العظيم كانت محسوبة بدقة بالغة بحيث أنها أنتجت بعد اتحادها عدد من البروتونات يساوي تماماً عدد الإلكترونات،وكذلك كمية من النيوترونات يكفي لتصنيع جميع العناصر الطبيعية التي بني منها هذا الكون.

وقد أودع الله هذه الجسيمات الثلاث أربعة أنواع من القوى لكي تحكم تفاعلاتها مع بعضها البعض وتحكم بالتالي جميع مكونات هذا الكون فيما بعد،وهي القوة النووية القوية والقوة النووية الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية وقوة الجاذبية. ولقد حدد الله

طبيعة كل من هذه القوى وشدتها ومدى تأثيرها بشكل بالغ الدقة،بحيث لو حدث خطأ بسيط في هذه المقادير لما كان هذا الكون على هذا الحال الذي هو عليه اليوم كما أثبت ذلك العلماء من خلال أبحاثهم العلمية. فالقوتان النوويتان القوية والضعيفة الموجودتان في البروتونات والنيوترونات تفوق شدتها بشكل كبير شدة القوتين الأخريين،ولكنهما في المقابل لا تعملان إلا على مدى بالغ القصر ولذلك فهما مسؤولتان عن تقييد البروتونات والنيوترونات في داخل نوى الذرات وذلك على الرغم من وجود قوة التنافر الكهربائية بين البروتونات. وممّا يثبت أن هنالك عقلاً مدبراً يقف وراء تصميم هذا الكون هو وجود النيوترونات في نوى الذرات والتي ظن علماء الفيزياء في بادئ الأمر أنها جسيمات عديمة الفائدة،لكونها لا تحمل أيّ شحنة كهربائية، إلا أنه قد تبين بعد دراسات طويلة أنها تلعب دورا بارزا في تصنيع هذا العدد الكبير من العناصر الطبيعية. فبدون هذه النيوترونات لا يمكن لنواة أيّ ذرة أن تحتوي على عدد كبير من البروتونات بسبب قوة التنافر الكهربائي بينها ولكان عدد العناصر التي يمكن للنجوم أن تنتجها لا يتجاوز عدد أصابع اليد كما بين ذلك علماء الفيزياء.

المطلب الثالث: آيات الله فى بسط الكون

كانَ النظر إلى السماوات والأرض على الدوام دافعاً لتفكير الإنسان ، وكلَّما تطورَ علمُ الإنسان تعاظم العالم السماواتي ذو الأسرار العجيبة في نظرِهِ، فلو قيسَتْ عظمةُ السماوات في نظر علماء اليوم مع ما مضى لكانت "كالقطرةِ" إلى "البحر" وليس معلوماً أن يكون "الغد" كذلك في قياسه مع "اليوم".

فماذا يجري في هذه المنظومةِ والمجرّات الكبيرة ، والنجوم الثابتةِ والسّيارة؟ وما هي العوالم الموجودة فيها؟ وإلى أيِّ زمانٍ يعود تاريخ ظهورها؟

وهل هناك من يسكنُ فيها ؟ وإذا كان كذلك فهل أنّ حياتهم تشبه حياتنا أم يختلفون عنّا ؟

هذه الأسئلة وعشراتٌ اخرى تشغلُ فكرَ كلِّ إنسانٍ باحثٍ ومتفحصٍ في أمر السماوات.

يقول علماء العصر: إنّنا اليوم نرى نجوماً في السماء قد اختفت من الوجود قبل آلاف السنين وربّما قبل ملايين السنين ، وهذا يعود إلى الفاصلة الخارقة بينها وبيننا ، وأنّ نورها قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السنين وما زال في طريقه الينا ، فاذا كان

الميدان الحقيقي للسماء هكذا- وهو كذلك- ، فإلى أيِّ حدٍ يختلف مع ما نراه اليوم؟ ليس هناك مَنْ يستطيع الإجابة عن هذا التساؤل ! ، هذه التساؤلات وأمثالها كثيرةٌ حيث يصعب الإجابة عنها من قبل العلماء.

لقد أصبحنا أمام مثل هذا العالم المملوء بالأسرار، فعظمتُهُ من جانبٍ ، والنظام والتقنين اللذان يسودانه من جانبٍ آخر ، تكشف الستار عن القدرة والعلم اللامتناهي لمن له اليد في هذا الخلق.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الشريفة الآتية :

١- {إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلى الْأَلْبَابِ} (آل عمران/ ١٩٠) .

٢- {إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ... لَأَيَاتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ} (البقرة/ ١٦٤) .

٣- {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ واخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعالِمينَ} (الروم/ ٢٢) .

٤- {إِنَّ فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلمُؤمِنينَ} (الجاثية/ ٣)

٥- {خَلَقَ اللّهُ السَّمواتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنِيْنَ} (العنكبوت/ ٤٤)

.

٦- {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ أَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ} (يونس/ ٣) .

٧- {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللّهُ فَأَنَّى يُؤفَكُونَ} (العنكبوت/ ٦١)

٨- {لَخَلْقُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (غافر/ ٥٧) .

٩- {قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}. (ابراهيم/ ١٠)

١٠- {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَاِنَّا لَمُوسِعُونَ* وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} (الذاريات/ ٤٧-٤٨) .

١١- {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظًا وهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}. (الانبياء/ ٣٢)

١٢- {اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}. (الرعد/ ٢)

المطلب الرابع: ربط المجرات والنجوم والكواكب

ببعضها البعض أما قوة الجاذبية وهي أضعف هذه القوى فهي المسئولة عن ربط المجرات والنجوم والكواكب ببعضها البعض، وتأتي القوة الكهرومغناطيسية بعد القوتين النوويتين من حيث الشدة وهي المسئولة عن ربط الإلكترونات بنواة الذرة من خلال الدوران حولها. ومن عجائب التقدير أن هذه الإلكترونات لا يمكنها أن تنجذب إلى داخل النواة رغم وجود قوة التجاذب بينها وبين البروتونات،ولو حدث هذا لكانت الأرض بحجم كرة القدم ولما كان حال الكون على ما هو عليه الآن. وقد بقيت هذه الظاهرة لغزاً يحير العلماء إلا أن تم كشف أسرارها في الربع الأول من القرن العشرين بعد أن تبين لهم أن قوانين الميكانيكا الكلاسيكية لا يمكن تطبيقها على حركة الإلكترونات عند اقترابها من البروتونات بل يلزم استخدام قوانين جديدة وهي قوانين ميكانيكا الكم التي بينت أن الإلكترونات تتخذ مدارات محددة عند دورانها حول نواة الذرة. وبسبب هذا التحديد البديع لأبعاد مدارات الإلكترونات حول النواة وبسبب تحديد عدد الإلكترونات التي يتسع لها كل مدار من هذه المدارات فقد نتج عنها هذا العدد الهائل من الظواهر الفيزيائية والكيميائية التي أفنى كثير من العلماء أعمارهم في كشف أسرارها والتي أدت إلى هذا التنوع الهائل فيما خلق الله من مخلوقات،وفيما صنع الإنسان من أشياء.

المطلب الخامس:

إشارة القرآن إلى كتلة السموات الواحدة

أشار القران الكريم بشكل واضح في ثلاث آيات قرآنية إلى حقيقة الانفجار الكوني العظيم،وإلى حقيقة التوسع الكوني وكذلك إلى حقيقة انهيار هذا الكون في النهاية. فقد أشار القرآن الكريم إلى أن السموات وما تحويه من أجرام كانت كتلة واحدة ثم تفتقت

جميع مادة هذا الكون من هذه الكتلة التي ملأت الكون بمادة دخانية وذلك مصداقا لقوله تعالى "أولم يرى الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون" الأنبياء ٣٠. ومن المعلوم في اللغة أن الفتق هو عكس الرتق فالرتق هو ضم شيئين لبعضهما البعض بينما الفتق هو خروج شيء من شيء آخر وما هو هذا الفتق إن لم يكن هذا الانفجار الكبير في مادة الكون الأولية الذي ملأ الكون بالجسيمات التي سماها القرآن الكريم الدخان. فالكون في الأصل كان كتلة واحدة ثم تحول إلى مادة دخانية ملأت الفراغ المحيط بها وهذا لا يحدث إلا نتيجة لانفجار هذه الكتلة المادية. وهذا الانفجار هو الذي جعل مادة الكون الأولية تتناثر وتندفع في كل اتجاه بقوة رهيبة محدثة التوسع الكوني الذي لا زلنا نشاهد أثره إلى هذه اللحظة. وممّا يؤكد على أن مادة هذا الكون قد جاءت نتيجة انفجار كوني ضخم هو إشارة القرآن إلى أن الكون في توسع مستمر والتوسع لا يتأتى إلا إذا بدأ الكون من جرم صغير وبدأ حجمه بالازدياد وذلك مصداقا لقوله تعالى "والسماء بنيناها بأييد وإنّا لموسعون" الذاريات ٤٧. لقد تفرد القرآن الكريم أيضا بذكر حقيقة التوسع الكوني هذا كما تفرد بذكر حقيقة الدخان كما ذكرنا سابقا بينما لم تأتي الكتب السماوية السابقة على ذكر هذا التوسع أبداً. أما الآية الثالثة التي تؤيد صحة هذه الفرضية هو قوله تعالى "يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين" الأنبياء ١٠٤، فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى توسع الكون عند بدايته فإن هذه الآية تشير إلى انكماشه عند نهايته وسيعيد الله الكون إلى ما كان علية عند بدايته "كما بدأنا أول خلق نعيده".
وليتأمل القارئ تشبيه القرآن للطريقة التي سينكمش بها هذا الكون عند انتهاء أجله فهي نفس الطريقة التي يتبعها الكاتب (السجل) في لف (طي) الرسائل (الكتب) عند الانتهاء من كتابتها كما هي العادة في زمن نزول القرآن.

المطلب السادس: الإجماع على كروية الأرض

أجمع أهل العلم على كروية الأرض، ولا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة، و أجمعوا أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة.: ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل على المشرق قبل المغرب، و السموات مستديرة عند علماء المسلمين ، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام : مثل أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي أحد الأعيان الكبار من الطبقة

الثانية من أصحاب الإمام أحمد وله نحو أربعمائة مصنف ، وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي ، وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين ، وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية ، وإن كان قد أقيم على ذلك أيضا دلائل حسابية ، ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك ، إلا فرقة يسيرة من أهل الجدل لما ناظروا المنجمين قالوا على سبيل التجويز : يجوز أن تكون مربعة أو مسدسة أو غير ذلك، ولم ينفوا أن تكون مستديرة ، لكن جوزوا ضد ذلك ، وما علمت من قال إنها غير مستديرة - وجزم بذلك - إلا من لا يؤبه له من الجهال والبراهين قد صحت بأن الأرض كروية، ومن الأدلة على كروية الأرض : قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) الزمر/٥ .
وقد استدل ابن حزم وغيره بهذه الآية ، " الأرض كروية بدلالة القرآن ، والواقع ، وكلام أهل العلم ، أما دلالة القرآن ، فإن الله تعالى يقول : (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) ، والتكوير جعل الشيء كالكور ، مثل كور العمامة ، ومن المعلوم أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض ، وهذا يقتضي أن تكون الأرض كروية ؛ لأنك إذا كورت شيئاً على شيء ، وكانت الأرض هي التي يتكور عليها هذا الأمر لزم أن تكون الأرض التي يتكور عليها هذا الشيء كروية، بوأما دلالة الواقع فإن هذا قد ثبت ، فإن الرجل إذا طار من جدة مثلاً متجهاً إلي الغرب خرج إلى جدة من الناحية الشرقية إذا كان على خط مستقيم ، وهذا شيء لا يختلف فيه اثنان .

وأما كلام أهل العلم فإنهم ذكروا أنه لو مات رجل بالمشرق عند غروب الشمس ، ومات آخر بالمغرب عند غروب الشمس ، وبينهما مسافة ، فإن من مات بالمغرب عند غروب الشمس يرث من مات بالمشرق عند غروب الشمس إذا كان من ورثته ، فدل هذا على أن الأرض كروية ، لأنها لو كانت الأرض سطحية لزم أن يكون غروب الشمس عنها من جميع الجهات في آن واحد ، وإذا تقرر ذلك فإنه لا يمكن لأحد إنكاره ، ولا يشكل على هذا قوله تعالى : (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) لأن الأرض كبيرة الحجم ، وظهور كرويتها لا يكون في المسافات القريبة ، فهي بحسب النظر مسطحة سطحاً لا تجد فيها شيئاً يوجب القلق على السكون عليها ، ولا ينافي ذلك أن تكون كروية ، لأن جسمها كبير جداً ، ولكن مع هذا ذكروا أنها ليست كروية متساوية الأطراف ، بل إنها منبعجة نحو الشمال والجنوب ، فهم يقولون : إنها بيضاوية ، أي على شكل البيضة في انبعاجها شمالاً وجنوباً " انتهى من "فتاوى نور على

الدرب".وبهذا تعلم أن كون الأرض كروية ، لا ينافي كونها كالبيضة ، وإنما القول الباطل هو الزعم بأنها مسطحة كما كانت تعتقد الكنيسة ، ولهذا كانت تلعن وتحرق من يقول بكرويتها من العلماء ، وينظر : "العلمانية نشأتها وتطورها" (١٣٠/١) .

المطلب السابع: آيات ورد فيها لفظ "الأرض"

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (١١ البقرة)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (٢٢ البقرة)

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (٢٧ البقرة)

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ (٢٩ البقرة)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (٣٠ البقرة)

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦ البقرة)

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ (٦٠ البقرة)

فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا (٦١ البقرة)

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ (٧١ البقرة)

وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ (١٦٤ البقرة)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا (١٦٨ البقرة)

وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ (٢٠٥ البقرة)

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (٢٥١ البقرة)

لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٢٥٥ البقرة)

أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ (٢٦٧ البقرة)

لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ (٢٧٣ البقرة)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٢٨٤ البقرة)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥ آل عمران)

وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٢٩ آل عمران)

فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ (٩١ آل عمران)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ (١٠٩ آل عمران)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ (١٢٩ آل عمران)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ (١٣٧ آل عمران)

وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ (١٥٦ آل عمران)

يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ (٤٢ النساء)

الفصل الثالث

المطلب الأول: حقيقة خلق السماوات والأرض

أجمعت الكتب السماوية السابقة على أن الله قد خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وجاء القرآن الكريم فأكد هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها

قوله تعالى "الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثمّ استوى على العرش ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكّرون" السجدة ٤.

ولكن القرآن الكريم لم يكتف بذكر هذه الحقيقة الكونية بل جاء بحقائق إضافية عن تفصيل هذه الأيام وكذلك عن الحال الذي كان عليه الكون عند بداية خلقه والحال التي سيؤول إليها. ومن أهم الحقائق التي تفرد بذكرها القرآن دون غيره من الكتب السماوية هي حقيقة أن السموات والأرض قد خلقهما الله في يومين اثنين ولم يستغرق خلقها ستة أيام كما جاء في قوله تعالى "قل أئنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم" فصلت ٩-١٢.

وكما هو واضح من هذه الآية المليئة بالحقائق المتعلقة بالأحداث التي مر بها خلق الكون،فإن الله قد خلق الأرض في يومين وكذلك خلق السموات في يومين، بينما تنص آيات أخرى كثيرة على أن مجموع أيام خلق السموات والأرض هي ستة أيام.

طرق المفسرين: وقد ذهب المفسرون القدامى مذاهب شتّى وهم يحاولون تفسير هذه الآية العجيبة والتوفيق بين الحقائق الكونية الواردة فيها وتلك الواردة في الآيات الأخرى. لقد دار الجدل بينهم فيما إذا كان اليومان اللذان خلق الله فيها السموات هما نفس اليومين اللذين خلق الله فيها الأرض وهل الأيام الأربعة التي خلق الله فيها الجبال وقدّر فيها أقوات الأرض تشمل اليومين اللذين خلق الله فيها الأرض؟وإلى غير ذلك من التساؤلات. إن هذه الآية القرآنية إن لم ينزل بتفسيرها وحي لا يمكن بأي شكل

من الأشكال تفسيرها من خلال التخمين والتفكير المجرد بل يحتاج تفسيرها إلى معرفة علمية كافية بالأحداث التي مر بها خلق الكون، فهذه الآية وغيرها من الأيات القرآنية المتعلقة بالحقائق الكونية يمكن تفسيرها فقط على ضوء الحقائق العلمية المكتشفة هذا إذا ما ثبت صحتها كما حصل مع الآيات القرآنية المتعلقة بحركة الأرض ومواقع النجوم ودور الجبال في تثبيت القشرة الأرضية. وسنشرح في ما يلي بعض الحقائق العلمية الأساسية التي اكتشفها العلماء المعاصرين للكيفية التي تم بها خلق هذا الكون والمراحل التي مر بها حتى أصبح على هذه الهيئة ثم نقوم بتفسير الآية القرآنية الآنفة الذكر على ضوء هذا الشرح.

المطلب الثانى: نشأة الكون حسب النظرية العلمية

لقد نشأ هذا الكون طبقا للنظريات العلمية الحديثة نتيجة لانفجار كوني عظيم انبثقت منه جميع مادة هذا الكون،حيث كان الكون عند ساعة الصفر على شكل نقطة مادية غاية في الصغر لها درجة حرارة وكثافة غاية في الكبر وقد أطلق العلماء على هذا الانفجار اسم "الانفجار العظيم". ولا يعرف العلماء على وجه التحديد ماهية المادة الأولية التي انبثق منها هذا الكون ولا من أين جاءت،ولماذا اختارت هذا الوقت بالتحديد لكي تنفجر ولا يعرفون كذلك أيّ شيء عن حالة الكون قبل الانفجار وصدق الله العظيم القائل "ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا" الكهف٥١.

ويغلب على ظن العلماء أن مادة الكون كانت عند بداية الانفجار مادة صرفة ذات طبيعة واحدة وتحكمها قوة طبيعية واحدة. لقد بدأت هذه المادة المجهولة الهوية بالتمدد بشكل رهيب وبسرعات غاية في الكبر نتيجة لهذا الانفجار لتملأ الفضاء من حولها هذا إذا كان هناك ثمة فضاء،حيث يعتقد بعض العلماء أن المكان والزمان قد ظهرا مع ظهور هذا الانفجار. لقد كان الكون الأولي على شكل كرة نارية متجانسة تملؤها سحابة من المادة الصرفة،وظلت هذه الكرة تتمدد وتتسع بصورة مذهلة إلى أن وصلت درجة حرارتها إلى ثلاثة آلاف درجة بعد مرور ما يقرب من مائة ألف سنة. وعند درجة الحرارة هذه بدأت الجسيمات الأولية البسيطة كالكواركات واللبتونات والفوتونات بالتشكل من هذه المادة الصرفة،وبدأت كذلك قوى الطبيعية الأربعة التي كانت موحدة في قوة واحدة بالانفصال عن بعضها البعض.
ومع استمرار تناقص درجة حرارة هذا الكون الناشئ إلى قيم أدنى،بدأت مكونات

الذرة الأساسية من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات بالتشكل من خلال اندماج أنواع الكواركات واللبيتونات المختلفة مع بعضها البعض نتيجة لتأثير القوى الطبيعية المختلفة. وقد وجد العلماء أن البروتون يتكون من ثلاثة كواركات اثنين منهما يحمل كل منهما شحنة موجبة تساوي ثلثي شحنة البروتون والثالث يحمل شحنة سالبة تساوي بالمقدار ثلث شحنة البروتون أيّ أن شحنته الكلية موجبة وتساوي بالمقدار شحنة الإلكترون السالبة. وأما النيوترون فيتكون أيضاً من ثلاثة كواركات اثنين منهما يحمل كل منهما شحنة سالبة تساوي بالمقدار ثلث شحنة البروتون والثالث يحمل شحنة موجبة تساوي ثلثي شحنة البروتون، أيّ أن شحنته الكلية تساوي صفر. وممّا أثار دهشة العلماء أن أعداد وأنواع الكواركات التي انبثقت من هذا الانفجار العظيم كانت محسوبة بدقة بالغة بحيث أنها أنتجت بعد اتحادها عدد من البروتونات يساوي تماماً عدد الإلكترونات،وكذلك كمية من النيوترونات يكفي لتصنيع جميع العناصر الطبيعية التي بني منها هذا الكون.

وقد أودع الله هذه الجسيمات الثلاث أربعة أنواع من القوى لكي تحكم تفاعلاتها مع بعضها البعض وتحكم بالتالي جميع مكونات هذا الكون فيما بعد،وهي القوة النووية القوية والقوة النووية الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية وقوة الجاذبية. ولقد حدد الله طبيعة كل من هذه القوى وشدتها ومدى تأثيرها بشكل بالغ الدقة،بحيث لو حدث خطأ بسيط في هذه المقادير لما كان هذا الكون على هذا الحال الذي هو عليه اليوم كما أثبت ذلك العلماء من خلال أبحاثهم العلمية. فالقوتان النوويتان القوية والضعيفة الموجودتان في البروتونات والنيوترونات تفوق شدتها بشكل كبير شدة القوتين الأخريين،ولكنهما في المقابل لا تعملان إلا على مدى بالغ القصر ولذلك فهما مسؤولتان عن تقييد البروتونات والنيوترونات في داخل نوى الذرات وذلك على الرغم من وجود قوة التنافر الكهربائية بين البروتونات. وممّا يثبت أن هنالك عقلاً مدبراً يقف وراء تصميم هذا الكون هو وجود النيوترونات في نوى الذرات والتي ظن علماء الفيزياء في بادئ الأمر أنها جسيمات عديمة الفائدة،لكونها لا تحمل أيّ شحنة كهربائية، إلا أنه قد تبين بعد دراسات طويلة أنها تلعب دورا بارزا في تصنيع هذا العدد الكبير من العناصر الطبيعية. فبدون هذه النيوترونات لا يمكن لنواة أيّ ذرة أن تحتوي على عدد كبير من البروتونات بسبب قوة التنافر الكهربائي بينها ولكان عدد العناصر التي يمكن للنجوم أن تنتجها لا يتجاوز عدد أصابع اليد كما بين ذلك علماء الفيزياء.

المطلب الثالث: آيات الله فى بسط الكون

كانَ النظر إلى السماوات والأرض على الدوام دافعاً لتفكير الإنسان ، وكلَّما تطورَ علمُ الإنسان تعاظم العالم السماواتي ذو الأسرار العجيبة في نظرهِ ، فلو قيسَتْ عظمةُ السماوات في نظر علماء اليوم مع ما مضى لكانت «كالقطرةِ» إلى «البحر» ، وليس معلوماً أن يكون «الغد» كذلك في قياسه مع «اليوم».

فماذا يجري في هذه المنظومةِ والمجرّات الكبيرة ، والنجوم الثابتةِ والسّيارة؟ وما هي العوالم الموجودة فيها؟

وإلى أيِّ زمانٍ يعود تاريخ ظهورها؟

وهل هناك من يسكنُ فيها ؟ وإذا كان كذلك فهل أنّ حياتهم تشبه حياتنا أم يختلفون عنّا ؟

هذه الأسئلة وعشراتٌ اخرى تشغلُ فكرَ كلّ إنسانٍ باحثٍ ومتفحصٍ في أمر السماوات.

يقول علماء العصر : إنّنا اليوم نرى نجوماً في السماء قد اختفت من الوجود قبل آلاف السنين وربّما قبل ملايين السنين ، وهذا يعود إلى الفاصلة الخارقة بينها وبيننا ، وأنّ نورها قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السنين وما زال في طريقه الينا ، فإذا كان الميدان الحقيقي للسماء هكذا- وهو كذلك- ، فإلى أيِّ حدٍ يختلف مع ما نراه اليوم؟ ليس هناك مَنْ يستطيع الإجابة عن هذا التساؤل !

هذه التساؤلات وأمثالها كثيرةٌ حيث يصعب الإجابة عنها من قبل العلماء.

لقد أصبحنا أمام مثل هذا العالم المملوء بالأسرار ، فعظمتُهُ من جانبٍ ، والنظام والتقنين اللذان يسودانه من جانبٍ آخر ، تكشف الستار عن القدرة والعلم اللامتناهي لمن له اليد في هذا الخلق.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الشريفة الآتية :

١- {إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلى الأَلْبَابِ} (آل عمران/ ١٩٠) .

٢- {إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ... لَأَيَاتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ} (البقرة/ ١٦٤) .

٣- {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعالِمِينَ} (الروم/ ٢٢) .

٤- {إِنَّ فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلمُؤمِنينَ} (الجاثية/ ٣) .

٥- {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَواتِ والْأَرْض بِالْحَقِّ إنَّ فِى ذَلِك لَآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنِيْنَ} (العنكبوت/ ٤٤) .

٦- {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَاعْبُدُوْهُ أَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ} (يونس/ ٣) .

٧- {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْض وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُوفَكُونَ} (العنكبوت/ ٦١)

٨- {لَخَلْقُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (غافر/ ٥٧) .

٩- {قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}. (ابراهيم/ ١٠)

١٠- {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَانَّا لَمُوسِعُونَ* وَالأَرْض فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} (الذاريات/ ٤٧- ٤٨) .

١١- {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظًا وهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}. (الانبياء/ ٣٢)

١٢- {اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوى عَلى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}. (الرعد/ ٢)

المطلب الرابع: ربط المجرات والنجوم والكواكب

ببعضها البعض أما قوة الجاذبية وهي أضعف هذه القوى فهي المسئولة عن ربط المجرات والنجوم والكواكب ببعضها البعض، وتأتي القوة الكهرومغناطيسية بعد القوتين النوويتين من حيث الشدة وهي المسئولة عن ربط الإلكترونات بنواة الذرة من خلال الدوران حولها. ومن عجائب التقدير أن هذه الإلكترونات لا يمكنها أن تنجذب إلى داخل النواة رغم وجود قوة التجاذب بينها وبين البروتونات،ولو حدث هذا لكانت الأرض بحجم كرة القدم ولما كان حال الكون على ما هو عليه الآن. وقد بقيت هذه الظاهرة لغزاً يحير العلماء إلا أن تم كشف أسرارها في الربع الأول من القرن العشرين بعد أن تبين لهم أن قوانين الميكانيكا الكلاسيكية لا يمكن تطبيقها على حركة الإلكترونات عند اقترابها من البروتونات بل يلزم استخدام قوانين جديدة وهي قوانين ميكانيكا الكم التي بينت أن الإلكترونات تتخذ مدارات محددة عند دورانها حول نواة الذرة. وبسبب هذا التحديد البديع لأبعاد مدارات الإلكترونات حول النواة وبسبب تحديد عدد الإلكترونات التي يتسع لها كل مدار من هذه المدارات فقد نتج عنها هذا العدد الهائل من الظواهر الفيزيائية والكيميائية التي أفنى كثير من العلماء أعمارهم في كشف أسرارها والتي أدت إلى هذا التنوع الهائل فيما خلق الله من مخلوقات،وفيما صنع الإنسان من أشياء.

المطلب الخامس: أشار القرآن الكريم إلى أن السموات وما تحويه من أجرام كانت كتلة واحدة

أشار القران الكريم بشكل واضح في ثلاث آيات قرآنية إلى حقيقة الانفجار الكوني العظيم،وإلى حقيقة التوسع الكوني وكذلك إلى حقيقة انهيار هذا الكون في النهاية. فقد أشار القرآن الكريم إلى أن السماوات وما تحويه من أجرام كانت كتلة واحدة ثم تفتقت جميع مادة هذا الكون من هذه الكتلة التي ملأت الكون بمادة دخانية وذلك مصداقا لقوله تعالى "أولم يرى الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون" الأنبياء ٣٠.

ومن المعلوم في اللغة أن الفتق هو عكس الرتق فالرتق هو ضم شيئين لبعضهما البعض بينما الفتق هو خروج شيء من شيء آخر وما هو هذا الفتق إن لم يكن هذا الانفجار الكبير في مادة الكون الأولية الذي ملأ الكون بالجسيمات التي سماها القرآن

الكريم الدخان. فالكون في الأصل كان كتلة واحدة ثم تحول إلى مادة دخانية ملأت الفراغ المحيط بها وهذا لا يحدث إلا نتيجة لانفجار هذه الكتلة المادية. وهذا الانفجار هو الذي جعل مادة الكون الأولية تتناثر وتندفع في كل اتجاه بقوة رهيبة محدثة التوسع الكوني الذي لا زلنا نشاهد أثره إلى هذه اللحظة. وممّا يؤكد على أن مادة هذا الكون قد جاءت نتيجة انفجار كوني ضخم هو إشارة القرآن إلى أن الكون في توسع مستمر والتوسع لا يتأتى إلا إذا بدأ الكون من جرم صغير وبدأ حجمه بالازدياد وذلك مصداقا لقوله تعالى "والسماء بنيناها بأييد وإنّا لموسعون" الذاريات ٤٧. لقد تفرد القرآن الكريم أيضا بذكر حقيقة التوسع الكوني هذا كما تفرد بذكر حقيقة الدخان كما ذكرنا سابقا بينما لم تأتي الكتب السماوية السابقة على ذكر هذا التوسع أبداً.

أما الآية الثالثة التي تؤيد صحة هذه الفرضية هو قوله تعالى "يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين" الأنبياء ١٠٤، فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى توسع الكون عند بدايته فإن هذه الآية تشير إلى انكماشه عند نهايته وسيعيد الله الكون إلى ما كان علية عند بدايته "كما بدأنا أول خلق نعيده". وليتأمل القارئ تشبيه القرآن للطريقة التي سينكمش بها هذا الكون عند انتهاء أجله فهي نفس الطريقة التي يتبعها الكاتب (السجل) في لف (طي) الرسائل (الكتب) عند الانتهاء من كتابتها كما هي العادة في زمن نزول القرآن.

المطلب السادس: الإجماع على كروية الأرض

أجمع أهل العلم على كروية الأرض، ولا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة، و أجمعوا أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة.: ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل على المشرق قبل المغرب، و السموات مستديرة عند علماء المسلمين ، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام : مثل أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي أحد الأعيان الكبار من الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد وله نحو أربعمائة مصنف ، وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي ، وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين ، وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية ، وإن كان قد أقيم على ذلك أيضا دلائل حسابية ، ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك ، إلا فرقة يسيرة من أهل الجدل لما

ناظروا المنجمين قالوا على سبيل التجويز : يجوز أن تكون مربعة أو مسدسة أو غير ذلك، ولم ينفوا أن تكون مستديرة ، لكن جوزوا ضد ذلك ، وما علمت من قال إنها غير مستديرة - وجزم بذلك - إلا من لا يؤبه له من الجهال والبراهين قد صحت بأن الأرض كروية، ومن الأدلة على كروية الأرض : قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) الزمر/٥ .
وقد استدل ابن حزم وغيره بهذه الآية ، " الأرض كروية بدلالة القرآن ، والواقع ، وكلام أهل العلم ، أما دلالة القرآن ، فإن الله تعالى يقول : (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) ، والتكوير جعل الشيء كالكور ، مثل كور العمامة ، ومن المعلوم أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض ، وهذا يقتضي أن تكون الأرض كروية ؛ لأنك إذا كورت شيئاً على شيء ، وكانت الأرض هي التي يتكور عليها هذا الأمر لزم أن تكون الأرض التي يتكور عليها هذا الشيء كروية، بوأما دلالة الواقع فإن هذا قد ثبت ، فإن الرجل إذا طار من جدة مثلاً متجهاً إلي الغرب خرج إلى جدة من الناحية الشرقية إذا كان على خط مستقيم ، وهذا شيء لا يختلف فيه اثنان .

وأما كلام أهل العلم فإنهم ذكروا أنه لو مات رجل بالمشرق عند غروب الشمس ، ومات آخر بالمغرب عند غروب الشمس ، وبينهما مسافة ، فإن من مات بالمغرب عند غروب الشمس يرث من مات بالمشرق عند غروب الشمس إذا كان من ورثته ، فدل هذا على أن الأرض كروية ، لأنها لو كانت الأرض سطحية لزم أن يكون غروب الشمس عنها من جميع الجهات في آن واحد ، وإذا تقرر ذلك فإنه لا يمكن لأحد إنكاره ، ولا يشكل على هذا قوله تعالى : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) لأن الأرض كبيرة الحجم ، وظهور كرويتها لا يكون في المسافات القريبة ، فهي بحسب النظر مسطحة سطحاً لا تجد فيها شيئاً يوجب القلق على السكون عليها ، ولا ينافي ذلك أن تكون كروية ، لأن جسمها كبير جداً ، ولكن مع هذا ذكروا أنها ليست كروية متساوية الأطراف ، بل إنها منبعجة نحو الشمال والجنوب ، فهم يقولون : إنها بيضاوية ، أي على شكل البيضة في انبعاجها شمالاً وجنوباً " انتهى من "فتاوى نور على الدرب".وبهذا تعلم أن كون الأرض كروية ، لا ينافي كونها كالبيضة ، وإنما القول الباطل هو الزعم بأنها مسطحة كما كانت تعتقد الكنيسة ، ولهذا كانت تلعن وتحرق من يقول بكرويتها من العلماء ، وينظر : "العلمانية نشأتها وتطورها" (١٣٠/١) .

المطلب السابع: آيات ورد فيها "الأرض"

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (١١ البقرة)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (٢٢ البقرة)

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (٢٧ البقرة)

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ (٢٩ البقرة)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (٣٠ البقرة)

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦ البقرة)

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ (٦٠ البقرة)

فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا (٦١ البقرة)

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ (٧١ البقرة)

وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ (١٦٤ البقرة)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا (١٦٨ البقرة)

وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ (٢٠٥ البقرة)

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (٢٥١ البقرة)

لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٢٥٥ البقرة)

أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ (٢٦٧ البقرة)

لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ (٢٧٣ البقرة)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٢٨٤ البقرة)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥ آل عمران)

وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٢٩ آل عمران)

فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ (٩١ آل عمران)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ (١٠٩ آل عمران)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ (١٢٩ آل عمران)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ (١٣٧ آل عمران)

وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ (١٥٦ آل عمران)

يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ (٤٢ النساء)

الفصل الرابع

آيات تدبير الله للأمم و الدنيا

الله تعالى، يربط بين عالم السماوات والأرض، والكون وأحداثه، وبين عالم الإنسان، سواء ما في صدر كل امرىء أو خط سير المجتمعات، ولهذا دلالات مهمة جدًا.. أما هذا الربط فانظر في هذه الآيات: (١) {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:٢٦]، فهذا عالم الإنسان الاختياري وعالم المجتمعات البشرية، ثم أردفها تعالى بعالم الكون فقال تعالى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران:٢٧]. (٢) وانظر في قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [سورة التغابن من الآية:٣]، فهذا عالم الكون، ثم قال تعالى: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [سورة التغابن من الآية:٣]، ثم قال تعالى مكررًا هذا الربط في الآية التالية: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة التغابن من الآية:٤]، فهذا عالم الكون بنواميسه ثم قال: {وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [سورة التغابن من الآية:٣]، فربط تعالى بين عالم الكون وقوانينه وعالم الإنسان، في الجانب الاختياري، ونواميسه. (٣) في سورة فاطر يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [فاطر من الآية:٣٨]، هذا عالم الكون وقوانينه، ثم قال تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [فاطر من الآية:٣٨]، وذات الصدور يعني: صاحبات الصدور، يعني تلك الخبيئات الملاصقة للصدر لا تفارقه، حتى صارت صاحبة للصدر، لم تظهر لأحد ولم يطلع عليها أحد، تلك الخبيئات يعلمها الله تعالى، فهذا أيضًا ربط بين قوانين الكون بما فيه، وقوانين الصدور البشرية. (٤) في ربط عميق جدًا في سورة الحج يقول تعالى في ثلاث آيات متتاليات، يذكر فيها تعالى قوانين الحياة البشرية الاختيارية {ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [الحج:٦٠]، ولما ذكر عالم القوانين البشرية أتْبعها بعالم الكون برهانًا على الحقيقة الأولى، فقال تعالى {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج:٦١]، فذكر عالم الكون بقوانينه ونواميسه ليقول للناس إن مدبر هذا هو مدبر ذاك.. ثم يربط تعالى الحقيقتين بما هو أعمق من هذا وذاك، فذكر تعالى ارتباط قوانين عالم الكون وقوانين عالم الإنسان، ارتباط هذا كله

بوجود الله تعالى نفسه وصفاته التي لا تبديل لها، ليقول للناس إن هذه القوانين ثابتة لا تتبدل ولا تتغير فاطمئنوا لأنه مرتبطة بالله تعالى، بذاته ووجوده وصفاته تعالى العلى وأسمائه الحسنى، فقال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج:٦٢]. لهذا كله دلالة مهمة: إن الله تعالى يدبر قوانين الكون، الشمس والقمر، وسير الفلك والسحاب، والمطر وخروج النبت، وبزوغ الصباح، هذا هو الله تعالى الذي يدبر عالم الإنسان وقوانين المجتمعات، والنصر والغلبة، والهزيمة وضياع الملك، وتبادل الأيام وتقليبها، وهذا كله مرتبط بوجوده تعالى وصفاته، فهي رسالة للمؤمن أن يطمئن فيتوكل على الله تعالى، وللكافر أن يعلم أن الأمور بيد عادل قيوم لا يغيب فلا يأمن لعاقبة فعاله الخبيثه فالله تعالى بالمرصاد. ـ ودلالة ثانية، وهي أهمية وقيمة العمل البشري في ميزان الله تعالى وميزان هذا الكون، وأن الأحداث، خاصة ما يجري بين المؤمنين بمنهج رب العالمين وبين عدوهم، ليس صراعًا على هامش الحياة بل هو في قلبها وعليه قامت الحياة وعلى أثره تُقضى أقدار وتدابير ربانية.

المطلب الأول: مصير الأمم السّابقة وأحوالها

من الموضوعات التي ركّز عليها القرآن الكريم في قصصه، وأمر بالتدبّر فيها وأخذ العبَر والمواعظ منها، موضوع مصير الأمم السّالفة خصوصاً الأمم الهالكة منها، وذلك عبر النظر فيها وما جرى على أقوامها من أحداث ووقائع وسنن وأحوال، هذه السّنن لا شكّ في أنّها تقوم على علل ومسبّبات، والآيات القرآنية طالما أشارت إليها بحيث جعلتها خطوطاً عامّة وعلامات واضحة يستشرف من خلالها المتدبّر الواعي حال الأمم السّالفة، وكيف تعاطت مع رسل الهداية من الله تعالى اسمه، وكيف صدّت نفسها عن طرق الهداية من مكنونات الفطرة والعقل ونهج الأنبياء والرّسل، هي قصص بليغة ليست للإثارة والتّشويق بل قصص هداية ومنهج حياة لا تقتصر فقط على زمانها ومكانها فحسب، بل هي مطّردة تجري في كلّ زمان ومكان، بل لكلّ الأمم والمجتمعات البشريّة. يحدثنا الله تعالى عن الأقوام السابقة المكذبة لرسلهم وما حل بهم من عذاب حتى يعتبر الناس بهم ولا ينتهجون منهجهم ولكن الناس لم يتعظوا بما حدث لهؤلاء المكذبين، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ»، سورة إبراهيم : ٤٥.

وأورد المفسرون فى كتاب التفسير الوسيط فى تفسير الآية الكريمة، أن المراد من قوله تعالى: «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ»، أى وأقمتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين المهلكين قبلكم وكنتم فيها سائرين سيرهم فى الظلم والكفر واقتراف المعاصى وليس لكم فيها معتبر ولا فيما أوقعناه بهم مزدجر.

وبين المفسرون أن معنى قوله عزوجل: «وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ»، أى ظهر لكم أيها الناس بمشاهدة الآثار الباقية من ديارهم التى أبيدت وأصبحت اثراً بعدما كانت تُرى بالعين وبتواتر أخبارهم ظهر لكم ما صنعناه بهم من تدمير وإهلاك بسبب ما اقترفوا من ظلم وإفساد كبير.

وأوضحوا أن المراد بقوله تعالى: «وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ»، أى بينا لكم فى التنزيل على ألسنة الأنبياء أحوالهم جميعها لتكون لكم فيها عظة وعبرة بقياس أعمالكم على أعمالهم ومآلكم إلى مآلهم فترتدعوا عما أنتم فيه من الشرك والضلال طلباً للنجاة، أو بينا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب، فكلمة " الْأَمْثَالَ" هنا معناها التشبيه والنظير.

قال تعالى {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[١]. {وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}[٢]. {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ}[٣]. {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ}[٤]. وإذا أردنا أن ننطلق لواقعنا في الحياة الاجتماعيّة، ونستشرف معالم مستقبل حياتنا المنشودة على طريق الحقّ والهداية والصّلاح، كان لزاماً علينا أن نبحث عن حركة الأمم في صعودها ورقيّها من جهة، وأيضاً عن عوامل سقوطها وهلاكها من جهة أخرى من خلال القرآن الكريم. يذكر السيّد الشّهيد الصّدر حول السّنن القرآنيّة في المجتمعات البشريّة: "إنّ القرآن يبيّن أنّ التّاريخ يسير وفق نواميس وسنن. وإنّ التاريخ بفضل هذه النّواميس والقوانين الخاصّة به دائم الصّيرورة والحركة، شأنه شأن باقي ظواهر عالم الوجود التي تقوم على قوانين وسنن خاصّة بها. والقرآن، ووفق صور وتعابير مختلفة، وانطلاقاً من العديد من الآيات، قد كشف هذه الحقائق ففي بعض الآيات تحدّث مباشرة عن وجود هذه القوانين، ولو بنحو كليّ وعامّ، حيث تحدّث عن أنّ التاريخ تحكمه نواميس وسنن خاصّة به، كما عمل ضمن آيات أخرى على عرض مصاديق لبعض هذه القوانين والسّنن التي تحكم عجلة تاريخ

البشريّة، كما وجدناه في آية أخرى يتحدّث عن بعض النظريات، التي عرضها من خلال ذكره لمصاديق وقائع وأحداث تاريخية واقعيّة ولم يقتصر على نوع واحد من أنواع التّعبير، بل كانت له القدرة على عرضها في أشكال مختلفة ومتنوّعة، بمعنى أنّ المصداق لم يكن هو الأصل في الآية أو الآيات، ولكنّ المفهوم الكليّ الّذي تكشفه هو المراد"[٥]. مفهوم الأمّة: الأمّة لغةً: أَمَمْت إليه: إذا قَصَدْته، معنى الأمَّةُ في الدّين أي أن مقصدهم مقصد واحد[٦]. الأمَّةُ: الطريقة والدّين، يقال فلان لا أمّةَ له أي لا دين له ولا نحلة له[٧]. نجد هذا المعنى في قوله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}[٨]. وأيضاً ذُكرت بمعنى الجماعة في قوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ}[٩] أي: جماعة من النّاس. وقد ذكر السّيّد الطّباطبائيّ في تفسير الميزان: أنّ أصل الكلمة من أمَّ، يؤمُّ إذا قصد وقد أطلق على الجماعة لكن ليس كلّ جماعة، بل جماعة كانت ذا مقصد واحد وبغية واحدة[١٠].

وقد وردت مفردات قرآنية عديدة مرادفة لمفردة (الأمّة) في القرآن الكريم، مثل الجمع والقوم والشّعب والقرية وأهل القرى وغيرها. وعادةً ما يستعمل القرآن في خطابه للأنبياء والأمم المعاصرة لهم، مفردة (القوم): يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١١]. هنا الحديث عن جماعة النّبي الّذي ينتمي إليهم إمّا بأواصر القربى والنّسب. وأخرى بمعنى أواصر العلاقات الفكريّة والاجتماعيّة الّتي تربطهم بالنّبي. كما في قوله تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[١٢]. الأمّة اصطلاحاً: أمّا في الاستعمال القرآنيّ نجد مفهوم (الأمّة) في آيات عديدة: منها قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[١٣]. وقوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٤]. الآيتان الكريمتان وغيرهما، فُسّرت بجماعات من النّاس متعدّدة بحسب واقعها اللّغوي والتّاريخي والشّعوبي، إلّا أنّها ترتبط فيما بينها بروابط فكريّة وشعوريّة وسلوكيّة، كما ولها أهدافٌ سياسيّة وحركيّة، بحيث تعبّر مجموعها عن مجتمع متكامل، وأبرز مصداق لتلك الجماعات هي جماعة الأنبياء على مرّ التّاريخ الإنسانيّ. أو كما يعبّر الشّهيد الصّدر & "الأمّة بوصفها مجتمعاً يُنشئ ما بين أفراده العلاقات والصّلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ المسندة بمجموعة من القوى والقابليّات"[١٥].

المطلب الثانى أهميّة التفكر في أحوال ومصير الأمم السّابقة في القرآن

من الموضوعات التي ركّز عليها القرآن الكريم في قصصه، وأمر بالتدبّر فيها وأخذ العبَر والمواعظ منها، موضوع مصير الأمم السّالفة خصوصاً الأمم الهالكة منها، وذلك عبر النظر فيها وما جرى على أقوامها من أحداث ووقائع وسنن وأحوال، هذه السّنن لا شكّ في أنّها تقوم على علل ومسبّبات، والآيات القرآنية طالما أشارت إليها بحيث جعلتها خطوطاً عامّة وعلامات واضحة يستشرف من خلالها المتدبّر الواعي حال الأمم السّالفة، وكيف تعاطت مع رسل الهداية من الله تعالى اسمه، وكيف صدّت نفسها عن طرق الهداية من مكنونات الفطرة والعقل ونهج الأنبياء والرّسل، هي قصص بليغة ليست للإثارة والتّشويق بل قصص هداية ومنهج حياة لا تقتصر فقط على زمانها ومكانها فحسب، بل هي مطّردة تجري في كلّ زمان ومكان، بل لكلّ الأمم والمجتمعات البشريّة

أكّد القرآن الكريم من خلال آياته على حقائق عديدة، والّتي ترتبط بحياة النّاس ومصيرهم وتنظّم شؤونهم وترسم طريق الصّلاح والهداية لهم، كما تمنع عنهم المزالق والأخطار التي تحدق بمصيرهم ومستقبلهم. ومن تلك الحقائق التي طالما ركّز عليها القرآن، هو موضوع بحثنا حول أهميّة النّظر والتفكر في أحوال الماضين من الأمم السّالفة، والأقوام الغابرة، وأخذ العبر والدّروس والتفكر فيها، وهي وقائع بطبيعتها لا تخصّ أمّة دون غيرها. وقد تناولت آيات القرآن الكريم هذا المعنى من زوايا عدّة: التفكر في أحوال الماضين: هذه الدعوة القرآنية لم تأت لحبّ الاستطلاع، أو هي من نسج الخيال القصصيّ، بل هي حقائق ووقائع عاشتها أمم سالفة كانت لعلاقاتها آثار عملية ارتبطت بمصيرها وعاقبتها، من هنا تأتي الضّرورة للتفكر فيها. يقول تعالى: {فَاقصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرون}.[٢٦] وقد تناول القرآن حياة الأمم في قالب القصّة الّتي هي أقرب للوجدان والمشاعر الإنسانية، وما فيها من تمثيل يستثير العقول ويوقظ الوعي الإنساني، نحو آثار وأحوال الأمم ليس في مآلها فقط، بل أيضاً في المسبّبات وأنماط السّلوك والممارسات الّتي لها صلة وثيقة بحياة الإنسان ومصيره. الاطلاع على سنن الأوّلين: يؤكّد القرآن الكريم دائماً على أخذ السّنن التّاريخية، والّتي جرت على الأمم السّالفة ومعرفة مصيرها سواءً في صعودها وتقدّمها أو في هلاكها وسقوطها، لذا من الضّروريّ التّعرف على تلك السّنن

واكتشاف مسار تحقّقها. ففي الوقت الذي يتعرّض لحياة الأمم السّابقة، يعرض كيف تعامل الأنبياء مع أقوامهم، وفق سنن وشروط تحكم هذه العلاقة، فهناك سنن للحق علينا الأخذ بها، وهناك سنن للباطل علينا اجتنابها وتركها، هذه السّنن والتي بطبيعتها تتّصف بالحتميّة، لا يمكن أن تتبدّل أو تتخلّف من أمّة لأخرى ما دامت تسير على خطاها ووفق سننها، يقول تعالى في هذا الصّدد: {يُريدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم ويَهدِيَكُم سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم ويَتوبَ عَلَيكُم واللهُ عَليمٌ حَكيم}[٢٧]. * تثبيت الرّوح الإيمانيّة: قال تعالى: {وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيكَ مِن أَنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وجاءَكَ فى هٰذِهِ الحَقُّ ومَوعِظَةٌ وذِكرىٰ لِلمُؤمِنين}[٢٨]. كذلك لم يكن عرض حياة الأنبياء وأقوامهم مجرّداً للمعرفة والتّفكّر في القرآن، ولا أن نأخذ السّنن منها فحسب، بل كان لها دور مهمّ في تثبيت قلوب المؤمنين والرّوح الرّساليّة، في حالات المواجهة والصّراع والمحنة، حيث تستحضر المدد الإلهي في حالات النّصر والهزيمة، وتربط الأسباب بيد خالقها فهو الحاكم والمهيمن وبيده مقاليد الأمور وإليه المصير. هذا البعد يرتبط بالحالة الوجدانيّة أكثر ويحرّكها بشكل واعٍ وبصيرة ثاقبة. أخذ العبر من المصير والعاقبة: إنّ القرآن كما يدعو للتّفكّر والتعقّل لممارسات الأمم وحالات الصّراع بينهم في الأساليب وطبيعة الأجواء، يدعو إلى أن نأخذ العبر والدّروس في نتائجه ومصيره ومآله، فالسّرد القصصي كما أشرنا يهدف للأخذ من حياة الماضين من أجل أن نرسم حاضرنا أو نحدد مستقبلنا القادم. قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ}[٢٩]. قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ}[٣٠]. يقول الإمام علي× في إحدى خطب نهج البلاغة >واعتبِرُوا بِما قد رأيتُم مِن مصارِعِ القُرُونِ قبلَكُم<. ويريد به الأمم الماضية أو الأجيال الماضية، فالقرن في اللّغة جماعة النّاس في عصر واحد فالإمام في هذا التّعبير يوجّه الأفكار نحو التأمّل في مصائر الأمم والشّعوب، وكيف ولماذا تضعف وتتفسخ ويصيبها الانحطاط والتخلّف؟. ويتساءل الإمام× في حشد عامّ عن مصير الدّول والشّعوب القديمة، فيقول مخاطباً أصحابه: >... وإنّ لكم في القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أين أصحاب مدائن الرّسّ الذين قتلُوا النّبيّين، وأطفأوا سُنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبّارين؟ أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن؟[٣١]. كما وتقسّم الأغراض القرآنيّة من وراء السّرد للقصّة إلى قسمين: الأوّل: ذا هدف موضوعيّ: من أجل إثبات صحّة النّبوّة أو إثبات وحدة الرّسالات أو شرح بعض القوانين والسّنن التّاريخيّة الّتي تتحكّم في مسيرة المجتمع الإنساني.

والثّاني: ذا هدف تربويّ: من أجل تربية الإنسان على الإيمان بالغيب، أو خضوعه للحكمة الإلهيّة أو الالتزام بالأخلاق والاعتبار بسير الماضين[٣٢]. كما أنّ التّاريخ بحسب الرّؤية القرآنيّة له عطاءات وثمار على حياة الأمم والمجتمعات، ذلك من خلال تأكيده على أمرين مهمّين: أوّلاً: إنّ للتّاريخ ضوابط كليّة وموازين عامّة فالقرآن رفض بشدّة النّظرة العبثيّة إلى التّاريخ، وأشار إلى وجود قواعد كليّة وعامّة: {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا}[٣٣]. ثانياً: يؤكّد على أنّ لإرادة الإنسان الدور الحاسم في تعيين مسيرة حركة التّاريخ ويشير القرآن إلى هذه القاعدة التربويّة التي تحكم التّاريخ ضمن حقل قوانينه العامّة، وذلك حين يؤكّد على أنّ البشريّة إنّما ترسم مصيرها بيدها كقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[٣٤].

المطلب الثالث: السّنن والقوانين المتحكّمة في حركة الأمم ومصيرها

حينما يتناول القرآن الكريم جزءاً كبيراً من حقائقه ومعارفه حول السّنن والقوانين المتحكّمة في حركة الأمم ومصيرها، يقوم إمّا بإعطاء الفكرة ضمن صيغة كليّة وقاعدة عامّة، أو من خلال تقديم النّموذج والمصداق على مستوى التّطبيق. والغرض الأهمّ من كلّ ذلك، هو الاستفادة الواعية المتدبّرة للحوادث والمواقف لتلك الأمم البائدة، واستقراء تاريخها من أجل اكتشاف السّنن والقوانين الحاكمة عليها، فالقرآن لا يجد معنى للاستقراء من دون افتراض ذلك. فحركة الأمم والمجتمعات وإن تحرّكت بموجب قانون العليّة والسّببيّة حركة حتميّة، إلّا أنّ ذلك يعتمد بشكل كبير على اختيار الإنسان وتفعيل إرادته، فهو بيده يمسك ناصية التّاريخ ويحرّكها، بل يخضعها لاختياره وإرادته دون أنّ يخلّ أو ينتقص من قانون العليّة وحتميّته. ففي الوقت الذي يشير القرآن للإنسان بوصفه العنصر الفاعل والمؤثّر في مجرى التّاريخ، يشدّد على تحمّل مسؤوليّة اختياره وعمله، وأن يتحمّل نتائج آثار أفعاله وخياراته، ولا يستطيع أن يخرج من إطار العليّة الحتميّة، بل يمكن أن يحقّق ما يريد في داخل دائرة الحتميّة، ودون أن يتخلّص من نتائج اختياره وإرادته. هذه الحقيقة المركّبة أشار إليها القرآن من خلال طائفتين من الآيات: فمن جهة قانون عامّ. قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[٣٥]، وضمن هذا القانون العادل إرادة الإنسان {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ

كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[٣٦]، فلا يمكن التوهم بالتّناقض وأنّ السّنن تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي، أو تعطّل إرادته واختياره، بل على العكس تؤكّد على المسؤوليّة الخطيرة من وراء اختياره. لذا نجد دائماً يتحدّث القرآن الكريم عن نموذجين من الأمم والمجتمعات، بينها تدافع وصراع مستمرّ في كلّ أدوار الحياة: النّموذج الأوّل: هم الأنبياء والرّسل وأتباعهم المستضعفون القلّة المخلصة (أهل الحقّ) الذين كانوا يمثّلون (النّموذج الصّالح الإنسانيّ) الدّاعي إلى الله تعالى والفضيلة والصّلاح في سبيل رقيّ الإنسانيّة وسموّها. النّموذج الثّاني: هم المترفون وكبار القوم، ممن أخذوا موقع التّوجيه والسّلطة في مجتمعاتهم، واستضعفوا أقوامهم بما استأثروا من نعم وثروات، بحيث كانوا يمثّلون (النّموذج السيّء والمنحطّ) الغرق في الضّلال والانحراف، والدّاعي إلى الفساد والدّمار والهاوي بالمسيرة الإنسانية للسّقوط والهلاك. سنن هلاك الأمم والمجتمعات: لم يكتف القرآن الكريم بعرض مجمل عن كلا النّموذجين، بل ذهب للأسباب والسّنن والعوامل التي أدّت إلى سموّ ورقي الأمم أو هلاكها وانحطاطها. سنن هلاك الأمم وسقوطها: ١- الكفر والشّرك القاعدة العقائديّة التي يتأسّس عليها المجتمع والأمّة، لها الأثر البالغ في تشكّل هويّة الأمّة وسلوكها، ولها أيضاً أن تحقّق صعود وسموّ الأمّة أو انحطاطها وهلاكها. وكانت القضيّة الكبرى في رسالات الأنبياء هي التّوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، في قبال ذلك كانت حالة الكفر والوثنيّة وعبادة الأصنام، تسود بين الأمم آنذاك. قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[٣٧]. وقال: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه}[٣٨]، وقال: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه}[٣٩]. الكفر بالله هو العامل الرئيسيّ في انهيار الأمم وهلاكها، ويعتبر القاعدة الفاسدة التي تنبت كلّ المفاسد وعوامل التّخريب والتّمزّق، وما ينتج من علاقات منحرفة وظالمة. باعتبار أنّ الكفر والشّرك يعني اتّخاذ مُثُل عُلياً محدودة ومنخفضة، تعمل على تجميد حركة المجتمع وإعاقة نموه وصعوده وبالتّالي يكون سبباً في تفتّته وانهياره. قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٤٠]، حالة الكفر والشّرك في عبادة الأصنام والآلهة، وأيضاً في حجب الحقيقة عن عقولهم، عبر الإنكار. ٢- الظلم والاستكبار تناول القرآن الكريم حالة الظّلم والاستكبار بشكل واسع، وكيف أثرهما في تمزيق المجتمع وهلاكه، وقد أشار القرآن نماذج للأمم الظّالمة والمستكبرة. قال تعالى: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٤١]. الظلم بما يمثّل من تجاوز طريق الحقّ يقود إلى حالة الاستكبار والطّغيان، سواءً في العلاقة مع الربّ المنعم عبر الشّرك والكفر وارتكاب المعاصي، أو تجاوز حقّ الآخرين من قبل فردٍ تجاه جماعة أو جماعة تجاه جماعة أخرى،

المطلب الرابع:الظّلم هلاك الأمم

وهناك آيات عديدة تشير إلى الظّلم كسبب رئيسيّ في هلاك الأمم والمجتمعات. قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}[٤٢]، و{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[٤٣]. ٣- تكذيب الرّسل ومعاداتهم يشير القرآن الكريم إلى أنّ من سنن هلاك الأمم، هو تكذيبهم لدعوة النّبي المرسَل إليهم، والاستهزاء به وبأتباعه والإيذاء النّفسيّ والجسديّ لهم. قال تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}[٤٤]، حيث كانوا يواجهون الأنبياء× وأتباعهم بحالة العناد والتعصّب والجدل والاستهزاء والرمي بالسّحر والجنون. كما في قوم نوح× وقوم عاد حالة الاستعلاء. قال تعالى: {فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}[٤٥]، و{قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}[٤٦]، و{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}[٤٧]، بل يدفعهم الحقد والتمرّد إلى أن يغلقوا على أنفسهم منبع الخير والبركة، وذلك تعدٍّ واضح للقيم الخيِّرة في الأمّة، وانحدار وتسافل نحو هلاك الأمّة وتلاشيها. {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}[٤٨]، الصّراع القائم دائماً كان بين النّبوّة وأتباعهم، وموقع المترفين والمسرفين في الأمم والمجتمعات، هو سنّة قرآنيّة طوال التّاريخ. ٤- الذّنوب والمعاصيّ يقوم المجتمع على العلاقات السّائدة بين النّاس، وهذه العلاقات إمّا أن تقوم على الطّاعة والفضيلة وبذل الخير وإقامة العدل والخلافة المرسومة لحياة الإنسان من قبل الله تعالى، أو تقوم على أساس حبّ الذّات والأهواء وتزيين الشّيطان، فيتصوّر أنّه باتّباع رغباته وشهواته يحقّق ما يصبو لذاته، فيقوم بالاستغلال السّياسيّ كفرعون {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٤٩] . أو

الانحراف الأخلاقيّ كما في قوم لوط×: قال تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}[٥٠]. أو عبر الخيانة الاقتصاديّة كما في قوم شعيب× {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[٥١]، وتتعدّد ألوان الانحرافات من مجتمع لآخر، وفي الأخير يقرّر القرآن هذه الحقيقة بأنّ الذّنوب والمعاصيّ طريق للسّقوط والانحدار والهلاك. قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ}[٥٢]. ٥- التّرف وكفران النّعمة في ظلّ الشّعور بالنّعم الإلهيّة والوفرة في الرّزق، تصبح المادّة والنّعمة لدى بعض الأمم قيمة عُلياً على أساسها يتفاضل المجتمع فيما بينه، ويشعر من يمسك بها ويستحوذ عليها بالاستغناء الذّاتيّ، وحالة الزّهو والاستعلاء على الآخرين ممن لا يمسكون بها، وبدلاً من الاستفادة من النّعم ووفرتها واستثمارها في صالح المجتمع، تتحوّل بيد المترفين وكبار القوم إلى حالة من الجشع والبطر، وتسود حالة الإسراف وسوء التّدبير مما يخلق ضياعاً للنّعم وبطر المعيشة واستضعاف حقوق الغير. قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}[٥٣]. يذكر القرآن نموذج قوم عاد، حيث كانوا ذا بسطة في الخلق وأجسادهم طويلة، وأولي قوّة وبطش شديد، وكانت بلادهم عامرة بالخيرات والنّعم الوافرة فيها نخل وزرع، ولكن كفروا بأنعم الله وأغرقتهم الوثنيّة وحالة التّرف عن طريق الهدى وعبادة الله تعالى. نزول الهلاك بعد إتمام الحجّة: بعد إتمام الحجّة الإلهيّة على البشر، وبعث الرّسل والأنبياء الّذين كان لهم الأثر في شمول الرّحمة على الأمم وكانوا سبب هداية وصعود لها، وبعد فرص الإمهال الإلهيّ وإعطاء فرص التّوبة، وصدود بعض الأمم عن دعوة الأنبياء بسبب أعمالهم وانتشار الفساد في الأمّة، يأتي نزول الهلاك والعقاب وكثيراً ما أكّد القرآن على ذلك في قوله تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}[٥٤]، و{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}[٥٥].

المطلب الخامس: صور الهلاك والعقوبة في الدّنيا:

هناك (عقوبات معنويّة) يذكرها القرآن مثل الختم على قلوب العصاة وإحباط أعمالهم، ويلبسهم لباس الذلّة والمسكنة ويبث الرّعب في قلوبهم. قال تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[٥٦]، إضافة إلى ذلك (عقوبات حسّية) كالصّاعقة والغرق والرّجفة والرّيح الشّديدة والطّوفان كما قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ}[٥٧]. بنو إسرائيل نموذج للأمّة الهالكة[٥٨] ذكر صاحب (مجمع البيان): "إنّ إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم× وإنّ (إسر) تعني: العبد، و(ئيل) بمعنى: الله، فيكون معنى إسرائيل عبد الله". عبادة العجل: بعد نجاة بني إسرائيل من قبضة الفراعنة أُمر موسى× بالذّهاب إلى جبل الطّور مدّة ثلاثين ليلة لتسلّم ألواح التّوراة، ثم مُدّت هذه اللّيالي إلى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه، واستغل السامريّ الدجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بني إسرائيل من ذهب الفراعنة ومجوهراتهم، وصنع منها عجلاً له صوت خاصّ، ودعا بني إسرائيل لعبادته. فاتّبعه أكثر بني إسرائيل، وبقي هارون ـ أخو موسى وخليفته ـ مع قلّة من القوم على دين التّوحيد، وحاول هؤلاء الموحّدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم يفلحوا، وأوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون أيضاً. عصيان النّبي: بعد أن عاد موسى من جبل الطّور تألّم كثيراً لما رآه من قومه، ووبّخهم بشدّة فرجع بنو إسرائيل إلى رشدهم، وأدركوا خطأهم وطلبوا التّوبة، فجاءهم أمر السّماء بتوبة ليس لها نظير، يقول سبحانه: {ثُمَّ عَفَونَا عَنْكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ}[٥٩]. أُمر بنو إسرائيل لأن يتجهوا إلى أرض فلسطين المقدّسة، لكن عصوا هذا الأمر، وأصرّوا على عدم الذّهاب ما دام فيها قوم جبّارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظّالمين لموسى وحده قائلين له: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا ههُنَا قَاعِدُونَ}[٦٠]، فتألّم موسى لهذا الموقف ودعا ربّه {قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[٦١] فكتب عليهم التّيه أربعين عاماً في صحراء سيناء. لم يتخلَّ بنو إسرائيل عن حالتهم النّفسيّة والثّقافيّة الموروثة عن عصر الطّاغوت، بعد عصر من الذلّ والاستضعاف والاستعباد، ولا بدّ من فترة برزخيّة تمرّ بها كي تكون قادرة على إقامة حكم الله في الأرض، وفق معايير إلهيّة بعيدة عن مؤثّرات عصر الطّاغوت. وسواء امتدّت هذه الفترة البرزخيّة أربعين عاماً

كما حدث لبني إسرائيل، أو أقلّ أو أكثر، فهي فترة عقاب إلهي هدفها التزكية والإصلاح والبناء. ولا بدّ من أن يبقى بنو إسرائيل مدّة أربعين عاماً من التّيه في الصّحراء ليتربّى جيلاً جديداً حاملاً لصفات توحيديّة ثوريّة، ومؤهّل لإقامة الحكم الإلهي في الأرض المقدّسة. مصير بني إسرائيل تفيد الآية الكريمة أنّ بني إسرائيل {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوَ بِغَضَب مِنَ اللهِ}[٦٢] لعاملين: الأوّل: لكفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خطّ التّوحيد. الثّاني: لقتلهم الأنبياء بغير حقّ. ظاهرة الانحراف عن خطّ التّوحيد وظاهرة القسوة والفظاظة، لا زالتا مشهودتين حتّى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، ولا زالتا سبباً لشقاوتهم وطيشهم وتعاستهم. الذلّة هي الصّفة الملازمة لليهود والصّغار الملتصق بهم أينما حلّوا ونزلوا، ليس حكماً تشريعيّاً كما قال بعض المفسّرين، بل هو قضاء تكوينيّ، وهو حكم التّاريخ الصّارم الذي يقضي بأن يلازم الذلّة، ويصاب بالصّغار كلّ قوم يتمادون في الطّغيان، ويغرقون في الآثام، ويتجاوزون على حقوق الآخرين وحدودهم، ويسعون في إبادة القادة المصلحين والهداة المنقذين، إلاّ أن يعيد هؤلاء القوم النظر في سلوكهم، ويغيّروا منهجهم وطريقتهم، ويرجعوا ويعودوا إلى الله. عن رسول الله| يصف جماعة من أمّته: >أما والله لتركبنّ طبقاً عن طبق على سنّة بني إسرائيل، حذو النّعل بالنّعل والقذّة بالقذّة<[٦٣]. سنن رقيّ الأمم وسُموّها: من تلك الأسباب والسّنن الّتي تسمو بالأمم ورقيّها: ١ـ سنّة التّغيير يقول تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[٦٤]. المكوّن الإنسانيّ يحتوي على عنصرين أساسيّين: أحدهما: المحتوى الداخليّ النفسيّ الروحيّ للإنسان وهو القاعدة. والآخر: هو الوضع الاجتماعيّ وهو البناء العِلويّ. لا يتغيّر هذا البناء العِلويّ إلّا وفقاً لتغيّر القاعدة. هذه الآية إذاً تتحدّث عن علاقةٍ معيّنة بين القاعدة والبناء العِلويّ، بين الوضع النّفسيّ والرّوحيّ والفكريّ للإنسان والأمّة وبين الوضع الاجتماعيّ، بين داخل الإنسان وبين خارج الإنسان، فخارج الإنسان، يصنعه داخل الإنسان (فكره وإرادته)، فإذا تغيّر ما (بنفس القوم) انعكس ذلك على تغيّر أوضاعهم، وعلاقاتهم، والروابط التي تربط بعضهم ببعض. إذاً فهذه سنّة من سنن التّاريخ تدفع بالفرد والأمّة نحو تغيير واقعها المتخلّف إلى حالة السموّ والصّعود، حيث ربطت القاعدة بالبناء العِلويّ {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[٦٥]. ومن الواضح أنّ المقصود بالتّغيير (القوم) ونفسيّة الأمّة بشكل عامّ، وإلّا تغيُّر الفرد أو الفردين أو الأفراد الثّلاثة لا يشكّل الأساس لتغيّر الواقع النّفسي والاجتماعي بصورة عامّة، ولا قاعدة للتّغييرات في البناء العِلويّ للحركة التّاريخية كلّها. لذا نجد دعوة الأنبياء^ دعوة لصناعة

الإنسان والحياة، ارتبطت بفكر الإنسان، من خلال إعطائه الرّؤية الصّحيحة للحياة الّتي تنفتح على آفاق الغيب، وأيضاً ارتبطت بمشاعره خالقةً بذلك روح الحيويّة والأمل، وأيضاً تصنع سلوكه على الأخلاقيّة الرّفيعة. ٢ ـ سنّة الامتحان والابتلاء قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}[٦٦]. يستنكر القرآن على الّذين يأملون النّصر وأن تتحقّق العزّة والرِّفعة لواقعهم، أن يكون لهم استثناء من سنّة التّاريخ، وأن يدخلوا الجنّة وأن يحقّقوا النّصر، ولم يعيشوا ما عاشته تلك الأمم، الّتي انتصرت ودخلت الجنّة، من ظروف البأساء والضّراء التي تصل إلى حدّ الزّلزال، في الحقيقة هي مدرسةٌ للأمّة، وامتحان لإرادة الأمّة، لصمودها، لثباتها، لكي تستطيع وبالتّدريج أن تكتسب القدرة على أن تكون (أمّةً وسطاً) بين النّاس، فنصر الله ليس أمراً عفويّاً، وليس أمراً على سبيل الصّدفة. نصرُ الله قريبٌ ولكن قريب من الذي اهتدى إلى طريقه طريق الامتحان والابتلاء والفتنة. ٣ـ سنّة الإيمان والتّقوى قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[٦٧]، تشير الآية الكريمة إلى وجود ارتباط وثيق بين التّغييرات الكونيّة والأوضاع الاجتماعيّة وبين الإيمان والتّقوى، والّتي هي من الأمور النّفسيّة الموجودة داخل الإنسان، ولأنّ شريعة السّماء نزلت من أجل أن تسود علاقات النّاس على أساس من التّقوى والعدل. ظنّوا كذباً أنّ أهواءهم وسوء العلاقات والرّوابط القائمة بينهم والّتي تقوم على الكفر والظّلم، هي الّتي تحقق لهم الخيرات والمكاسب، ولكن الحقيقة أنّ السنّة التّاريخيّة تؤكّد عكس ذلك، تؤكّد بأنّ تطبيق شريعة السّماء، وتجسيد أحكامها في علاقات الإيمان والتّقوى، تؤدّي دائماً وباستمرار إلى وفرة الخيرات

ونزول بركات السّماء وهذه سنّة من سنن التّاريخ.